

أثير عبد الله النشمي

عتمة الذاكرة

رواية

دار الساقي

أثير عبد الله النشمي

عتمة الذاكرة



علمة الذاكرة

إلى عبد الله وعبد العزيز...

وإن صار في العُمر عَتمة،

فستكونان في عُمري البصيص...

أثير عبد الله النشمي

تيت! تيت...

تيت، تيت...

هل مُت؟!

يدوّي هذا الصوت في رأسي كقنبلة توشك على الانفجار، أحاول أن أفتح عيني الثقيلتين فلا أقدر، أحرك أصابع يدي فلا تستجيب، كُل ما أشعر به هو صوت "التيت تيت" وظلام دامس، والكثير الكثير من الخوف والنسيان والفزع.

لا أعرف أين أنا، وكيف وقعتُ في هذا الظلام! لا أعرف إن كان هذا الموت أم أنا عالق تحت مبنى مُنهار أو سيّارة مُنقلبة، كُلّ ما أعرفه أنّني أسمع لكنني لا أرى ولا أقدر على الحركة.

أهذا هو الموت؟!.. يبدو كالموت! لكنني لا أظن أنني سأسمع في موتي صوتاً كهذا الصوت، أصوات الموت مُفزعة وإن لم أسمعها، أمّا ما أسمعه الآن فيبدو كصوتِ سيّارة تجاوزت حدود السرعة، أو ربما كصوتِ شاحنة نقل كبيرة،

شاحنة! صحيح!.. هو صوت شاحنة! رأيت تلك الشاحنة!

كُنت في سيارتي أقرأ رسالة زوجتي الغاضبة التي قالت لي فيها إنها لن تشاركني يوماً آخر في حياتها وإنها تمقت اليوم الذي تزوجتني فيه وإنها باتت تكرهني كما لم تكره أحداً في هذه الحياة.

حينها رفعتُ عينيّ عن شاشة هاتفي ورسالة زوجتي الناقمة تلك، شعرتُ بشبح ضخم يقترب على يساري، التفتُّ فالتقت عيناي بعينيْ سائق الشاحنة الهادرة المُقبلة باتجاهي، كانت عيناه مرتعبتين وهو يتقدّم نحوي بسرعة جنونية وقاتلة، اقترب واقترب وانتهى المشهد!

أنمتُ أم متّ؟! لا أعرف، كل ما أعرفه أنه كان المشهد الأخير في ذاكرتي، عينا السائق كانتا آخر صورة في ذاكرتي، صوت الشاحنة كان الصوت الأخير قبل نومي / موتي!

هل أنا ميت حقاً؟! أهذا هو الموت الذي لطالما تخيّلته؟! لا، لا أريد أن يكون هذا هو العرض الأخير، لطالما دعوت الله خاتمة حسنة، أموت فيها في المسجد وأنا أصلي بين جموع المؤمنين، أو في بيتي بينما أقرأ القرآن في غرفتي وبوجود زوجتي، لكنني رحلت وحدي بعدما قرأت رسالة مُنتهى تلك، الرسالة التي قالت لي فيها لأول مرة وبعد ثماني سنوات من الزواج إنها تكرهني "جداً" وإنها تمقت اليوم الذي أصبحت فيه زوجتي!

كيف متّ فجأة؟... أحقاً متّ؟...

* * *

أليس النسيان نعمة عظيمة من نعم الله؟

نطلب الله دائماً أن يهبنا الكثير من النسيان، وحينما نسقط في هوّة النسيان، نشعر بأننا محض

فراغ، أثير، سديم.

نشعر كأننا بلا ثقل ولا وزن، وكأننا نطير بأرجلٍ لا تعرف الجاذبية ولا تستجيب لها ولا لقوانينها.

أُدرك أنني أبتعد الآن بالنسيان بعيداً عن هذه الحياة، أحاول أن أتذكّر شيئاً فلا يحضرني سوى المشهد الأخير كاملاً، ومشاهد أُخرى مُتقطعة ومُبهمة لا تُفهم.

كلّما استعصت الذكرى عليّ، تمسّكتُ بالمشهد الأخير المُفزع، شاحنة مهيبة، سائق مفزوع وفاقد للسيطرة، وزوجة يؤلمني قلبي حينما أسترجع اسمها الذي يصرّ على أن يقف في وجه النسيان آبياً أن ينجرف مع أمواجه العاتية، متشبّثة بالذكرى بمخالب أنثى فهدٍ متوحشة.

مُنتهى! أيّ مُنتهى هذه التي يبدو أنّني أحبّها لدرجة أن أنسى كل ما في حياتي عداها! هذا الوجع الذي يعتصر قلبي حينما أسترجع رسالتها

الأخيرة تلك، يُنبئني بأنها المرأة الأهم في حياتي كلها.

أين هذه المنتهى؟ لا أعرف كم مضى على سقوطي في هذا الفراغ لكنني أعرف أنني هنا منذ وقت ليس بقريب، ربما أحيا في هذا الظلام منذ زمن بعيد، زمن لا أقدر على تحديده الآن، فأين هذه المنتهى منّي؟ كيف تجعلني أسعى في هذا الظلام وحدي، بدون أن تشاركني إيّاه أو حتى أن تنتشلني منه؟

تيت.. تيت! يعلو صوت التيت ولا يردّ على صداه سوى الكثير من الألم وملامح بعيدة لشبه ذكرى!

* * *

تتراءى لي مشاهد كثيرة ما بين الظلام، مقاطع

سينمائية متداخلة، لحظات فرح حقيقية ومشاهد حُزن كثيرة وقاسية.

أشعر حينما أرى هذه الرؤى بأنني على وشك أن أستيقظ من هذا الجاثوم، أن أعود للواقع بعد انتهاء هذا الظلام، لكنني لا أستيقظ ولا ينتهي هذا السواد حتى بعد نهاية الكابوس!

كُنت أخرج من كابوسٍ لأسقط في آخر، ولا ينقذني من هذه المشاهد المتقاطعة سوى مشاهد فرح قديمة في بيت أنيق ومع زوجةٍ جميلة، تحتضن قلبي وتُشعرني بالحنين لشيء حميم وقديم لم أعد أعرفه ولم أعد أذكر منه سوى بعض المشاهد.

لا أعرف إن كُنت تخيّلت يوماً أنّني سأتوه في شيء يشبه هذه المتاهة، لكنني لا أظن أن أحداً قادر على أن يظن أنّ هُناك شيئاً يُشبهها، هذا هو الموت لكنه ليس بموت، مكان بين الموت واللاموت، شيء لا نفهم تفاصيل غيابنا فيه وكيف سنخرج

منه، شيء لا يمرّ به كُل أحد.

كُل ما أحتاج إليه الآن هو أن أهمس، أن أصرخ، أن يصدر منّي أيّ صوتٍ يوحي لي أنني ما زلتُ حياً.

أحتاج لأن ألمح نوراً، أو بصيص نور، أحتاج لأن أسترجع الرؤية وأن أتسلل من خرم هذا الظلام الأدهم إلى شيء من نور هذه الحياة.

رأيت منذ لحظات رؤيا شعرتُ فيها بكُل ما يمكن أن يشعر بهِ إنسان، رأيتُ أنني في بيتٍ قديم بينما كُنت طفلاً، أو شعرتُ بأنني في جسد ذلك الطفل، كان الوقت ليلاً وكنت أحمل في يدي طباشير ملوّنة، أرسم بها على جدار غرفة معيشة قديمة، بأرائكها البنّية الكئيبة، حينها دلفت امرأة في أواخر أربعيناتها، نحيلة الجسد، شعثاء الشعر، قاسية الملامح، صاحت بغضب وبصوتٍ حادّ كفحيح أفعى:

- مشهور! عسى إيدينك الكسر إن شاء الله!

خبّأت رأسي تحت ذراعي وأنا أصيح بخوف الدنيا أجمع: آسف يمه، سامحيني، ما عاد أعودها يمه!

قالت وهي تهزني كجذعِ نخلة: دامك عارف أن اللي تسوّيه غلط، ليش تسويه؟؟ وين مخك؟

وانهالت عليّ بالضرب، حتى كدتُ أشعر بأن جسدي الطريح المسجّى يكاد يستيقظ من نومته الطويلة هذه.

لا أعرف لماذا انتهى هذا المشهد عند تلك الصفعات، ألم أعد أحتمل رؤية العرض كاملاً أم أن رقابة الإنسان في ذاكرتي خشيت أن أعيش ذلك الوجع مرة أُخرى!

فكرتُ كثيراً فيمن قد تكونه هذه المرأة! ناديتها أمّي، لكنني لم أشعر تجاهها بما يشعر به الأبناء تجاه أمّهاتهم، من المستحيل أن تكون تلك المرأة

فعلاً أمي! تلك القسوة التي رأيتها في هيئة امرأة يستحيل أن تتجسّد في جسد أمّ!

ربما تكون زوجة أبي، أبي الذي لم يمرّ على ذاكرتي حتى هذه اللحظة، وكأن ذاكرتي تأبى استحضاره أو بعثه فيها مرة أُخرى.

كيف يغيب أبي عن ذاكرتي، وكيف تحضر فيه زوجته؟ أين أمّي منّي؟ الأم التي لا بدّ من أنها تستعمر الجزء الأكبر من تاريخي وذكراي ومن وجداني، ألا تسكننا أمّهاتنا؟ فكيف غابت أمي عني في ظرفٍ كهذا الظرف، ظرف ما بين الموت واللاموت، ظرف "شبه الموت" هذا الذي يسيطر عليّ ويُطبق على حياتي.

رأيتُ منذ ذلك السقوط ملامح ومواقف كثيرة، مررت فيها بمشاعر مختلفة، جيّاشة، صعبة، قاسية ولا تُفسر، لكنني لم أسترجع في تلك المواقف أسماءً ولم أميّز فيها طبيعة علاقة

بأيّ أحد سوى مُنتهى.

مُنتهى الاسم الذي يملأ ذاكرتي والملامح التي أُميّز تفاصيلها، أتعلق بملامح مُنتهى كي لا تتسرّب منّي هذه الذكرى، كي لا تنعدم فأعود إلى حالة العدم التي وقعت فيها منذ بداية ذلك الصوت الذي لم يتوقف منذ أن بدأ.

مشهور! اسمي مشهور واسمها مُنتهى، لا بأس في هذا كبداية!

* * *

تطفو السمكة حالما تموت، تُعلن موتها بنفسها ولا تدع للمخمّنين مجالاً للشك في ما إن كانت نائمة أم ميتة.

مطمئنة هي هذه الرؤيا! وجدت نفسي أقف بجوار فتاة جميلة، أصيلة الملامح، بشعر أسود

حالك تربطه كذيل حصان شامخ، وعينين يسكنهما ليل أدهم لا يشوبه إلّا لمعة نور، كنا نقف في صالة شقة أنيقة أمام حوض صغير تسبح فيه أسماك صغيرة ملونة، أمسكت الفتاة بمغرفة كبيرة وانتشلت من الحوض سمكة برتقالية مفتوحة العينين، مدّت إليّ بالمغرفة وعلى ملامحها آثار حزن قائلة: ماتت السمكة!

أمسكت بالسمكة الصغيرة بيدي وضغطت عليها، قلت لها وأنا أعيدها إلى حوض الأسماك: دعيها في الحوض هذه الليلة لتودّعها صديقاتها، سنتخلص منها في الغد.

تركت مُنتهى تراقب الأسماك التي كانت تلعب حول السمكة الميتة ودخلت إلى غرفة مكتب دافئة، تمدّدت على الأريكة الجلدية وبدأت بقراءة رواية لحنيف قرشي، جاءتني منتهى راكضة وهي تصرخ بفرح: عاشت السمكة!

قلت بسخرية: ماتت السمكة، عاشت السمكة

هل نلعب؟

ضحكت بحماسة: أقسم لك أنها تتحرك!

تسبح! تعال وألقِ نظرة.

تبعتها حيث الحوض لتصدمني السمكة وهي

تسبح بنشاط من لم يسبق لها الموت قبل قليل!

قُلت: تستهبل؟

ضربت منتهى كتفي وبعينين دامعتين من شدّة

الضحك: أنقذت السمكة يا مشهور! أنعشتها،

دورة إنعاش الأسماك أجدت نفعاً!

أردتُ أن أقول لها شيئاً، لكنها غابت وغابت

السمكة معها عن المشهد بعدما رأيت فيه

ملامحها لأول مرّة وسمعت صوتها، ولمستني

بيدها.

لا أعرف ما الذي أسعدني أكثر، أرؤية منتهى

أم الأمل في أن يعود الموتى من بعد موتهم للحياة

كتلك السمكة!

أحتاج لأن ينعشني أحد كما أنعشت أنا تلك السمكة؟ وكيف غفل الناس عن إنعاشي؟

ناس؟!... أيّ ناس؟!... يبدو أنني متّ فعلاً!

* * *

لطالما تمنيتُ أن أكبر، كُنت اتوق لأن أعيش ثلاثيناتي، افترضتُ أن خطوط حياتي ستكون فيها واضحة، كُل شيء في هذا العمر سيكون مُحدّداً، دقيقاً ومُخططاً، لم أتخيّل أن أصل إلى هذا العُمر وأنا ما زلتُ أصارع التيه وحدي.

قاسٍ هذا التيه! قاسٍ بقدر ما هي قاسية عتمة الذاكرة.

تتقافز الذكريات في هذه العتمة، تلوح لي ذكرى وتقترب منّي أُخرى، ولا يزيدني هذا إلّا

فزعاً وضياعاً.

لم أعتقد أن الذكرى ستكون أقسى من النسيان إلى هذا الحدّ؟ ربما لأنها لم تَكُن متسلسلة، ولم تتدرّج، هطلت عليّ بتسارع وبصور مُفاجئة وأحداث صعبة ومُختلفة، جاءتني بتفاصيل تحتاج إلى مقدمات طويلة وتفسيرات مُبرّرة.

بدأت أعي نفسي، بدأت تستفيق الذاكرة وإن لم تُفقني من لُجّة العتمة.

وجدت نفسي فجأة أُميّز أصوات زواري، أفهم معظم أحاديثهم، أشعر بمحبّتهم، أُحبّ بعضهم، أخشى صوتاً واحداً منهم، ويتوق سمعي لصوتٍ لم يأتني بعد!

أفتّش في أصواتِ زائرات عن صوتٍ أحتاج إليه، صوت قادر على أن يوقظني من هذه الحلكة، لكن أصواتهم تزداد ويبقى ذلك الصوت غائباً، لم يجئ ولم أقدر على أن أستيقظ

أو أن أرى شيئاً من نور...

* * *

أمن الغريب أنني لم أعد أشعُر بالخذلان مهما تكالبت الخيبات عليّ؟

لا أعرف كيف أصبحت هذا الرجل، ومتى أصبحته؟... لا أظن أنني قد تخيّلت يوماً أن تفعل بي الخيبات المتالية كُل هذا وأن تجعل مني هذا الإنسان الذي أصبحتُ عليه، لا أعرف كيف بتُّ رجُلاً لا يُحرك فيه الخذلان شعرة ولا يرمش له عين.

أنا لست رافضاً لحالة التكيّف هذه، لكنني لا أقبل الأسباب التي أدت إلى أن أعيش هذه الحالة، الأسباب التي جعلت منّي كهلاً في طفولتي وطفلاً ينقصه الكثير من النضج في شبابي.

أنا لستُ بارداً بطبعي، ولستُ مُستسلماً بفطرتي، لكن الوجع الذي تلى الوجع والخيبة التي أعقبت الخيبة جعلا منّي هذا الرجُل، الرجُل الذي بات ينتظر من الحياة أيّ شيء ويتوقع من الحياة كُل شيء.

أذكر أنني قد ربّيت ومُنتهى عصفورين أبيضين، كُنا نراقبهما ليلاً ونهاراً، كانا يمُدّاننا بطاقة حُبّ لا توصف يتشاركهما كُلّ ما يُمكن مشاركته في قفصهما الصغير.

وفي أحد الأيام مرضت العصفورة حتى تساقط جزء من ريشها من شدّة المرض والوهن، وكان العصفور ينام بجوارِ الجزء المفقود من ريشها ليحميها من شدّة البرد وقسوته.

وماتت العصفورة! وظلّ العصفور يغرّد بصوتٍ حزين وكأنه يرثي شريكته التي تركته وحيداً مُغادرة الحياة، لم تمضِ أكثر من ثلاثة

أيام وغادر العصفور أيضاً.

مات! رُبّما شوقاً ورُبّما حُزناً أو ربّما رفضاً لتلك الوحدة، المهمّ أنّه لم يقدر على أن يعيش وحيداً بلا حُبّ ولا شريكٍ يُقاسمه الشتاء والريش والحياة.

وأنا أشعر الآن تماماً كما شعر ذلك العصفور، لكنني لستُ شجاعاً مثله لأختار الموت على الحياة، أنا لستُ جاهزاً بعد لتلك المواجهة، قلبي مُتضخم بالحُزن، بالشوق وربّما بالكثير من الخذلان لدرجة أنني لم أعد أستوعب الجديد منه! لكنني برغم كُل هذا، لا أريد الموت الآن، لا أريد أن أموت مهموماً حزيناً، أحتاج لأن أنتقل إلى هناك وأنا مستعد لذلك العبور الأبدي، أحتاج لأن أكون مستعداً رغم أنني أعرف أن الموت لا يجيء هكذا ولا بهذه الصورة، لكنني أدعو الله أن يمنحني بعض الوقت لأنهي فيه عوالق الحياة.

أتوق شوقاً لمن في الموت، لمن ينتظرني حيث

الموت، لكنني برغم الوحدة ما زلت أخاف من عبوره الآن!

مُنتهى! مدّي إليّ بيدكِ يا مُنتهى، لستُ مستعدّاً بعد لأن أعبر جسر الحياة وأن أنتقل إلى الموت!

* * *

أعود إلى أمّي، الذكرى التي تحتلّ الجزء الأكبر من ذاكرتي، فتختلط مشاعري، وينقبض قلبي كما لو أن يداً قويّة تقبض عليه بشدّة وعمد.

أمّي لم تكُن ككُل الأمّهات، ورغم أنني لطالما قرأت وسمعت وتعلمت أن الأمهات يتشابهن في جميع أقطار العالم، لا أظنّ أن أمّي تشبههنّ، أو للإنصاف هي لا تُشبه معظمهنّ.

من قال إن كُل الأمهات يتشابهن؟ من قال إن كُل الأمهات يتساوين في التضحية والاهتمام

والحنان أو حتى في مقدار الحُب الذي يُغدقن به على أبنائهن؟

أمّي لا تشبه النموذج الذي يتغنّى به الشعراء ولا النموذج الذي تصفه لنا قصص المواعظ والحكايات، كانت أمّي امرأة قاسية، لا تجيد سوى القسوة والصرامة، لا تفقه في الحنانِ شيئاً ولا تُجيد التعبير عن الحُبّ، ولا أظنّ أنها حاولت مُجرّد المحاولة أن تُعبّر عن حبّها لنا، هذا إن كانت أحبّتنا أصلاً!

حينما كُنت صغيراً، كُنت على يقينٍ من أنها كانت تكرهنا، كُنت أفكّر دائماً لِمَ لا ترحل عنا، لِمَ لا تهجرنا وتتركنا خلفها ما دامت لا تطيق أحداً منّا؟ كُنت أراقب جاراتنا من الأمهات، أراقب عمّاتي وخالاتي وكيف يُعاملن أبناءهن، كيف يحتضنّ أبناءهنّ، كيف يحنون عليهم، كيف يحمينهم وكيف يحاولن أن يعلّمنهم كُل ما يمكن

أن يتعلمه الطفل بُحبّ وخوف وحنان، لكم كُنت أتمنّى أن تعلمني أمي الحياة بدلاً من أن تعلمني الحياة كيف هي أمّي!

كُنت أفكر دائماً، لمَ لا تشبه أمّي بقيّة الأمهات؟! لمَ لا تُحبّنا مثلما تُحبّ الأمّهات أبناءهن؟ فكرتُ كثيراً في كونها ليست أمّنا الحقيقيّة! شككتُ في أوقاتٍ كثيرة في أن تكون فعلاً أمّنا، وأظنّ أن إخوتي وأخواتي قد فكروا يوماً في ما قد فكرت فيه وإن لم نتصارح في هذا أبداً!

عرفتُ بعدما كبرت وإخوتي وأخواتي، أنّ أمّنا كانت العقدة الكبيرة في طفولةِ كُلٍّ منّا! كانت لدى كُلِّ واحد منا الكثير من التساؤلات حيالها، كانت لكُلِّ منّا مخاوفه، وشكوكه وأسئلته التي لم تساعده طفولته البريئة في الإجابة عنها، الغريب أننا لم نتشارك في طفولتنا تلك الأفكار ولا تلك المشاعر، وكأنّ كلّ واحدٍ منا كان يظن أنه الوحيد

الذي يشعر بتلك المشاعر والوحيد الذي يفكر بتلك الأفكار، كُنا نشعر بالعيب والخوف من أصل الفكرة، كانت أفكارنا مُرّة والنقاش فيها لم يكُن ليزيدها إلّا مرارة.

كنّا نعرف أن هذا ليس طبيعياً أبداً ولا فطرياً على الإطلاق، لذا خشينا أن نتشارك تلك المشاعر، ظنّ كل واحدٍ منا أن مشاعره وأفكاره تجاه أمّنا هي الشاذة الغريبة لأننا كُنا نفهم - رغم حداثة أعمارنا ومشاعرنا وتجاربنا البسيطة في الحياة - أنها ليست الصورة التي يجب أن تكون عليها الأمّهات.

بحثتُ كثيراً بعدما كبرت في الأسباب التي جعلت من أمّي هذه الأم! قرأت كثيراً، سألتُ كثيراً، حاولتُ أن أفهم منها بطرق مباشرة وغير مباشرة كثيراً، ورغم أنني وجدت أجوبة كثيرة لم يُبرّر لي أيّ منها تشويه أمي لطفولتنا ولم تشفع لها عندي قسوة طفولتها ولا زواجها بأبي الذي كان

يكبرها بثلاثين عاماً.

تُعلق أمي على والدي دائماً كُلّ خيباتها، تتنز
بكرهها له، وبعنفه عليها، تبرّر قسوتها علينا في
طفولتنا بسبب العنف الذي كان يُمارسه أبي عليها
وكأنها تقول بشكلٍ غير مباشر، كُنت أنفّس عن
غضبي وألمي وقهري من خلالكم أنتم، هكذا!
ببساطة كانت هذه هي الحجّة وكان هذا هو
المبرّر.

لم تُقل أمّي هذا، لكنّني قُلته في نفسي ألف مرّة
ومرّة، في كُل مرّة كان يسيء أبي فيها إلى أمّي،
كانت أمّي تجيء إلينا وتصبّ جام غضبها علينا،
تُمارس علينا كُل أشكال العنف، تُهيننا لفظياً،
تُمزقنا نفسياً وتُعذبنا جسدياً.

أذكر اليوم الذي رسب فيهِ أخي ماجد في الصف
الخامس الابتدائي، جئتُ لأبي أنا وهو بشهاداتنا،
كُنت أخطو إلى غرفته بخطوات ملك وأنا أقبض

بيدي على شهادتي بزهوٍ وفخر لا يوصف، بينما كان ماجد يجرّ قدميه بخوفٍ ورهبة وانكسار من خسر المعركة.

دلفنا إلى غرفته بعدما استأذنّاه في الدخول، قبّلت جبينه ومددت له بشهادتي قائلاً: طلعت الشهادات يبه!

قال وهو يعدل من نظارته الطبّية وقد ضاقت عيناه مركزاً في الورقة أمامه: بشر! وشلون النتيجة؟

- ناجح الحمد لله!

- ما شاء الله! مبروك، والصغير ليش يعطيني شهادته قبل الكبير؟ وشلون نتيجتك يا ماجد؟

مدّ ماجد بشهادته إلى أبي بيد ترتعش وهو مطأطئ الرأس وبدونِ أن ينبس بحرف، تفحّص والدي الشهادة بعينين لامعتين غاضبتين، رفع رأسه إلى ماجد، أزاح نظارته عن عينيه، وبصق في وجهِ ماجد وهو يلعنه ويشتمه!

خرجنا من غرفة والدي، أنا الناجح في الصف الرابع الابتدائي وماجد الراسب في الصف الخامس الابتدائي، ب"ما شاء الله مبروك" لي! وبصقة والكثير من الشتائم واللعنات لماجد!

حينما خرجنا من غرفة والدي، مررنا حيث تجلس أمي التي كانت تحتسي قهوتها في صالة البيت، قالت وهي ترفع فنجان القهوة إلى شفتيها النحيفتين وبلهجة بدت لي شامتة حينها: وش سوّا أبوكم مع الساقط؟

صمت ماجد بُذلّ بينما قُلت وأنا أضحك بشقاوة: تفل أبوي في وجهه!

- وبس؟! تفل بوجهه وقضينا؟ ما كسر العصا فوق رأسه؟

قُلت كمن اعتاد قول الحقيقة بدقة: بس تفل بوجهه وقال له الله يلعنك يا الفاشل!

كان ماجد صامتاً، يرقب الأرض أثناء حديثي

مع أمّي وكأنه يصلي لله أن ينتهي ذلك اليوم وأن يُصبح ذكرى!

كانت أمّي قد سبقت والدي في عقاب ماجد، صفعت أمّي ماجد الكثير من الصفعات وانهالت عليه بأبشع الشتائم والأوصاف ورغم ذلك كانت تبدو مستاءة من عدم تعنيف والدي لماجد جسدياً بعد معرفتهِ برسوبه وكأن ما ناله منها لم يكفِه ولم يشفِ غليلها!

قُلت لماجد في الليل ونحن نتبادل أحاديث ما قبل النوم: إن شاء الله تنجح بالدور الثاني، ذاكر بالإجازة وإن شاء الله بتنجح.

قال ماجد وهو يُغالب دموعه: عوّرتني أمي اليوم.

قُلت مواسياً بسنواتي التسع الغضّة: عادي، أمي دايم تضربنا!

- بس اليوم غير! ضايق صدري عشاني راسب.

- تراك راسب بمادتين، كلّ العيال يذاكرون لهم أهلهم وحنا ما عندنا أحد يذاكر لنا، قل الحمد لله نجحت بالباقي.

أعود اليوم إلى حوارنا القديم ذلك، وأشعر بغصة لم أشعر بها ليلتها! أنظر إلى تلك الليلة من زاوية أُخرى تختلف كثيراً عن الزاوية التي كنت أنظر فيها للأمور.

كم كان حوارنا ناضجاً بفعل الألم! كان النضج والحكمة في حديثنا يفوقان أعمارنا التي لم تتجاوز العشر سنوات بكثير، وهذا قاسٍ، قاسٍ للغاية!

أذكر أنّ والديَّ تشاجرا بعد رسوب ماجد بيومين، كان صوت صياحهما عالياً في غرفة نومهما، وفجأة انفتح باب الغرفة ورأينا والدي وهو يخرج منها ساحباً أمّي من شعرها، أذكر كيف كان يضربها بقسوة وهي تصرخ مُبادلة إيّاه الضرب والشتائم، كنا نلعب في صالة البيت أنا

وماجد وأختي نجلاء التي كانت في الثالثة من عمرها وقتذاك بالإضافة إلى نورة التي لم تكُن تتجاوز عامها الأول، بينما كان يزيد وراكان في حلقة تحفيظ القرآن.

أذكر كيف رفع أبي عقاله وانهال به على أمّي بالضرب وهو يلهث من شدّة القسوة والغضب، وكيف كانت تشتمه رافعة يديها أمام وجهها محاولة حماية نفسها، كُنا نقف أنا وماجد بخوف وفزع وكلّ واحد منا يحتضن إحدى أختيه وكأنّ الفطرة تصيح بداخلنا أنّ ما يحدث أمامنا ليس من الفطرة في شيء وأن شجاعة الذكور تتجلى في أن يحموا الإناث.

خرج أبي من البيت وهو يلعن أمّي وكلّ ما يمتّ بها ولنا بصلة، كانت أمّي ملقاة على الأرض وهي تبكي وتصرخ وتبادل أبي اللعنات والسباب.

فجأة التفتت أمّي إلى حيث نقف، وصرخت

فينا بوجهٍ تتجلى فيه قسوة وغضبُ العالم اجمع:
وأنت واياه وش عندكم واقفين تتفرّجون عليّ؟؟
قامت من مكانها فجأة، اخذت عقال أبي
المرمي على الأرض وأقبلت علينا كفرس هائجة،
وانهالت على ماجد بالضرب وهي تصرخ بشعرٍ
أشعث وملابس ممزقة: وأنت يا الغبي يا الفاشلُ
ليش ما تذاكر؟ ما عندك مخ تفهم فيه؟ وش ينقصك
عن باقي العيال عشان تسقط؟
التفّت عليّ وضربتني بالعقال فصرخت فيها وأنا
أبكي: وأنا وش سوّيت يمّه؟؟؟ أنا ناجح!
- وأنت عشان تعرف تضحك على أخوك مرّة
ثانية!

- متى ضحكت على أخوي؟
- قبل أمس!
أذكر أنني استرجعت تفاصيل تلك الليلة مع
ماجد قبل اعوام، اذكر أننا ضحكنا كثيراً على ما

فعلته امّي بنا تلك الليلة! ضحكنا على مبرّراتها في تعنيفنا اللامُبرّر! ضحكنا كثيراً، لكنّني أعرف أننا لم نضحك فعلاً على ما حدث!

أُدرك أن كلّ واحد منا حينما يسترجع تلك الحادثة، يسترجعها بالكثيرِ من الألم والعجز وقلة الحيلة وربما بالكثيرِ من الحقدِ أيضاً.

أذكر كيف بقينا لأيام نحاول أن نفهم بيننا وبين أنفسنا لَمَ فعلت بنا أمي هذا؟ لَمَ عاقبتنا فجأة على حادثة وقعت قبل أيام؟ تلك الحادثة زادت الفجوة التي كانت بيننا وبين أمي، زادتها عمقاً واتساعاً، وزادت في قلوبنا الرعب منها وانعدام الثقة بها.

اليوم أعرف أن أمي لم تُعاقبنا لأننا أخطأنا، اليوم أعرف أنها عاقبتنا لتنتقم من أبي من خلالنا، هي التي لم تقدر تلك الليلة على أن تحمي نفسها منه، قامت وصبّت جام غضبها منه علينا، أنا وماجد اللذين لم نكُن نتجاوز العاشرة من العمر حينذاك!

افكر اليوم، ايّ أمّ كانت أمّي؟! ماذا كانت ستفعل معنا وبنا لو كانت زوجة لأبينا، لا أمّنا؟! أكانت ستكون أشد عنفاً وقسوة؟! أكانت ستكرهنا أكثر مما كانت تكرهنا؟! أكانت ستعذب طفولتنا أكثر ممّا فعلت معنا؟!

لا أظن أنها ستكون أشدّ قسوة، على العكس تماماً، أظن أنها مهما كانت ستفعل معنا لم تكن لتُعلم بدواخلنا مثلما علمت فينا كأم! أن تُهينك غريبة لا يُشبه أن تُهينك أمّك، أن تنبذك امرأة لست منها، لا يُشبه أبداً أن تنبذك من جئت أنت منها.

كل شيء كان قاسياً لأنه كان من "أمّي"، أمّي التي كان من المفترضِ أن تكون صمام أماننا، بئر أسرارنا، اللبوة التي تحمينا، والحضن الذي نرتمي عليه في كُل وقت نشعر فيه بالضعف أو بالخوف.

من الغريب أن تكون أمي هي مصدر ذلك الخوف، من الغريب أن تكسر أمي بدواخلنا الثقة

والقوة وتقدير الذات، من الغريب أن تفعل أمّ بأبنائها كل هذا!

اليوم، أنا أحنّ كثيراً على أمي، كبرت أمّي وضعفت ولم تعد تلك المرأة التي كانت عليها، لا أقول إنها أصبحت ككل الأمهات، لكنها لم تُعد بتلك القوة وتلك الجبروت وتلك القسوة، خارت قواها ولم تعد تقدر إلا على أن تستخدم الدين كذريعة لأن تلومنا وتنتقدنا وتُهيننا من خلاله، نحن الذي ما زالت وستظل ترى أننا مقصّرون فيه وبعيدون عنه.

اليوم أشفق أحياناً على أمّي، أشفق على المرأة التي بداخلها، المرأة التي لم تستطع أن تسعد لا بزواج ولا بأمومة، أشفق عليها لأنني أُدرك وأعلم أنها لم تستمتع في حياتها قطّ، لا قبل مجيئنا ولا بعد وجودنا ولا حتى بعدما كبرنا وتركناها.

يطلّ وجه طفولتي القبيح بين الحين والآخر،

يعتصر معدتي، فأعود ذلك الطفل الصغير الذ
كان ينكمش في فراشه حينما يسمع صوت قد
أمه وهي تقترب، كُنت أغمض عينيّ بشدّة مُدّ
النوم، خوفاً من أن تنهال عليّ ضرباً إذا ما اكتشف
أنني ما زلت مستيقظاً.

أشفق على ذلك الصغير مثلما بتّ أشفق اليو
على أمي، وإن كُنت أشفق على طفولتي الخائفة
أكثر، أتمنّى أحياناً لو عُدت لبعض الأحداث في
طفولتي، أتمنّى أن أخترق المشهد، أن أحتضن
الصبيّ الذي كُنته، أن أمسح على رأسه وأضمّه
إلى صدري مطمئناً إيّاه بأنه سيجيء يوم وسيكبر
وسينتهي من كُلّ ذلك الذلّ والتعنيف والفزع.

ربمّا لم ينتهِ فعلياً ذلك الفزع، ربما تلك العوالق
ما زالت باقية في حياتي وأُدرك جيداً أنها ما زالت
موجودة في حياة إخوتي وأخواتي، لكنّنا بتنا رجالاً
وسيدات، لم نعد أولئك الأطفال الذين يُرهبهم كُل

شيء وأيّ شيء، اليوم أنا لا أشعر بالخوف أمام الذكرى، اليوم أنا أكرهها كثيراً، أحقد عليها، اشعر بالعجز أمامها، لكنني لم أعد أخافها قطعاً لأنّني لم أعد صغيرة.

أكره أن أعترف بداخلي، بأن كُل ما حلمت بأن تكون عليه فتاة أحلامي هو أن لا تشبه أمّي في شيء! هذا جُلّ ما أردته! أن لا تكون كأمي، أن لا تحمل وجهاً من وجوهها، أن تكون بعيدة تماماً عن كل ما قد يذكّرني بها.

لم يكُن ذلك عسيراً! ربّما لأنّ شبيهات أمّي قلة في هذه الحياة، لكن مُنتهى لم تكُن تختلف عن أمّي فحسب، كانت مُنتهى نقيضها الحادّ تماماً، نقضيها المتطرّف، البعيد، نقيضها الأقصى!

رُبما سقطت في مُنتهى لذلك السبب! ربما لأنني وجدت فيها ما لم يكُن في أمّي، وعشت معها ما لم أعشه مع أمّي، وتعرّفت معها إلى وجوه

لم أرَها، ومشاعر لم تُمنح لي يوماً.

باختصار هكذا كانت مُنتهى، "امرأة لا تُشبه أمي"!

* * *

خذلتني مُنتهى! خذلتها، خذلت حبّنا الحياة...

لا أعرف من ابتدأ سلسلة الخذلان منّا، المهمّ أن هذه السلسلة لم تتوقف منذ أن بدأت، لم نتمكّن من إيقافِ عجلتها الفاقدة للسيطرة، دارت عجلة الخذلان حتى اهترأ جسد العلاقة وانحلت روابطه وانهار.

اليوم أمقت مُنتهى كثيراً، أبغض خذلانها لي، أكره استسلامها للخذلان ودفعي للاستسلام أيضاً، أمقتها بقدرِ ما زلت أفتقدها وأُحبّها، دائماً ما أُفكر لو صبرت مُنتهى قليلاً! لو استطاعت أن تُشعرني

بأنها ما زالت تثق بالحُبّ العظيم الذي كان بيننا، لو تمكنت من أن توصل إليّ مدى إيمانها باستمرارية علاقتنا وانتصار حُبّنا، ربّما لما خنعت لنفسيهِ ونما استسلمت للفشل ولما بقيت وحدي أصارع في كُلّ لحظة وحدة حُبّي لها وبقايا ذكراها.

عندما طلقت مُنتهى، ثار بركان الانتقام في نفسي، جُنّت كرامتي، وتوحّشت عِزة نفسي، كُلّ ما أردت فعله حينما وقع الطلاق هو أن أفعل كُل ما يمكنني فعله من خطايا، احتجتُ لأن أُعربد من جديد، أردتُ أن أسقط في الحُبّ بذات السرعة وعين الجنون ونفس العمق الذي سقطت فيه مع وفي مُنتهى، أردتُ امرأة أُخرى تبعثرني مثلما فعلت بي تماماً مُنتهى، سافرت، دخنت، سكرت، تعرّفت إلى فتيات كثيرات في أشهر قليلة، عشتُ جنوناً لم أعشه قبلاً حتى في مراهقتي و عزوبتي قبل زواجي، لكنني كُنت أعود في آخر ساعات

الليل، وحينما أضع رأسي على الوسادة وأنقلب لأبحث عن رائحة مُنتهى، عن وجودها بجواري نائمة، أنصتُ لزفيرها الناعم وأستكين كما كُنت أفعل حتى في أكثر لحظات صراعنا احتداماً.

بعد عدّة أشهر من الحُرّية عادت الوحدة، أطلت عليّ بملامحَ مُتحدّية شامتة وقاسية، وكأنها تتوعدني بأنها لن تتركني أعيش بدونها، فإمّا هي وإمّا مُنتهى.

مُنتهى! لماذا جعلتني أتركها تلك المُنتهى؟ لمَ لم تتمسّك بي؟ لمَ لم تمنعني؟ لمَ لم تُحارب لكي تُبقيني معها؟

ألوم مُنتهى بقدرِ ما ألوم نفسي، أنا الذي تشبّثت بمواقفي ولم أتنازل معها وأمامها.

اعود اليوم إلى تلك المواقف، اظنّ أنني شعرتُ بأنني كُنت في الموقف الأقوى، كُنت اظنّ أنني من يُسيطر على العلاقة، من يقدر على ان يلوي ذراعها

ومن يستطيع أن يتحكّم في مُجرياتها، بفعل الحُبّ وفعل الرجولة وفعل السلطة وفعل العصمة التي كُنت ألوّح بها أمام مُنتهى والتي كانت تمنحني الموقف الأقوى.

كُنت دائماً ما أشعر بأنّ من اللازم أن أفوز في تلك المعارك الزوجية، لم أكن أتنازل لأن التنازل كان يُشعرني بالضعف وبالخنوع، واليوم بعدما ابتعدت عن ذلك المسرح وخرجت من ذلك المشهد، أظن أن مشاعر الضعف والخنوع تلك كانت تعود بي إلى طفولتي البعيدة، حيثُ أمي، المرأة التي كُنت أحبّها رغم أنها كانت تشعرني بالعجز والخوف.

أنا لم أرغب يوماً بامرأة كأمّي، لم أكن أريد امرأة تُشبهها لا كزوجة ولا كأم، لكنني وجدت نفسي فجأة أتحول تدريجاً وتلقائياً إلى رجُلٍ يُشبه أبي، رجُلٍ أُدرك أن قسوته قد تصنع امرأة كأمي، وهذا

ما لم أكُن أقدر على أن أتحمّله، لا ان اكون رجلاً كابي ولا أن أكون مع امرأة كأمّي حتى لو كُنت أنا من جعلها تلك المرأة.

خذلتُ مُنتهى، فبادلتني الخذلان، لم تقدر على أن تحتمل تخبّطي في متاهة الحُب ودهاليز الطفولة، تغيّرت، تبدلت، أصبحت لا تُحتمل ولا تُطاق.

في كُل حوار يجمعنا مُصيبة، بعد كُلّ لقاء جسدي كارثة، حينما نكون معاً نُصبح شخصين آخرين، لا يُشبهان نفسيهما ولا يُشبهان الشخصين اللذين وقعا في الحُبّ.

مقتُّ كثيراً الشخص الذي باتته، وأبغضت كثيراً الشخص الذي أصبحته، وما إن وقع الطلاق بيننا، حتى بتُّ أنظر إليها كما كُنت أفعل قبل المقت، وأراهن على أنها عادت لتراني كما عهدتني قبل تلك الغيمة الحالكة التي أبت أن تنقشع حتى فرّقتنا.

فكرتُ كثيراً في ما فعل بنا كلّ هذا، ربّما عين حاسدة، ربّما نفس شرّيرة، ربما سحر أسود... ربما أشياء كثيرة! المؤكّد أن ما دمّر علاقتنا هو قوّة عظيمة، قوّة لا تعرف ولا تُفهم ولا تُفسّر، قوّة تفوق قدرتنا على المقاومة وعلى الثبات وعلى الاستيعاب.

وقع الطلاق! دُمّرت العلاقة، انتهت الزيجة لكن الحُبّ الذي كان بيننا لم يمُت!

شُوّه الحُب، جُرح، خُدش، تمزق، تكسّر... ورغم ذلك لم يمُت! ما زالت أنفاسي تتسارع حينما تمرّ ذكراها، ما زالت عيني تدمع عندما أستمع إلى الموسيقى التي كانت تُحبّها، أفلامنا، أغانينا، أماكننا، مُدننا وحتى أصناف الطعام، باتت جميعها تعتصر قلبي شوقاً لها.

أفكر كثيراً، كيف قدرت على أن أطلقها؟ كيف فكرت أنني قادر على اجتثاثها من قلبي

وهي مغروسة بهذا العمق فيه؟ كيف ظننت انني قادر على أن أبتدئ حكاية جديدة وحياة جديدة ومستقبلاً جديداً مع غيرها أو حتى بدونها؟

أفكر كثيراً وتُدهشني الإجابة، فعلاً أنا لم اشعر بشيءٍ من هذا عندما قرّرت أن أطلق مُنتهى، كُل ما فكرت فيه هو الخلاص، الكرامة، الانتقام، عزة نفسي ضلّلتني، كل ما رغبت فيه هو أن ألملم كرامتي في الحُب، أن لا أتنازل لمُنتهى، كُل ما أردته هو أن أكون قوياً بلا تضحيات ولا تنازل ولا شجارات تُعكّر حياتي بين الحينِ والآخر، أردتُ أن أُلقّن مُنتهى درساً وأن أوصل لها بشكلٍ قاطع أنّ رجُلاً مثلي لن يحتمل الكثير من المشاكل والنكد.

طلقت مُنتهى، انتهت المشاكل، عاد الهدوء، ولم تعد هُناك امرأة تُحاسبني على كُلّ شيء وأيّ شيء، عُدت حُرّ نفسي، بلا قيود ولا التزام ولا

ارتباط ولا عهود ولا تحقيق ولا نكد.

اليوم أنا حُرّ تماماً، لكنني لم أعد أنا! الحُرّية التي اخترتُ العودة إليها لم تعُد تُسعدني، الحياة التي اخترتها على مُنتهى لم تعد كما كانت، لم تُعد تلك الحرّية تُناسبني.

ذهبت السكرة، جاءت الفكرة ولم تعد في حياتي مُنتهى!

* * *

تجرفني الذكرى بعيداً، إلى زمنٍ قديم... أُشيح بوجهي عنه كيلا أعيشه مرة ثانية، فيقفز في وجهي مُكشّراً عن أنيابه و مُصرّاً على أن يُذكرني بنفسه!

تمرّ في حياةِ كُلّ إنسان منّا، أحداث ومواقف وأيّام لا رغبة له في أن يتذكرها يوماً، يتمنى لو استطاع أن يمحوها من ذاكرته وحياته وكأنها

لم تحدث فيه قطّ، لكننا لا نقدر على أن نمحو وجود ذكرى ولا قدرة لنا على أن نتجاهل تأثيرها لمُجرّد أنها أصبحت شيئاً من الماضي، ولمُجرّد أنها أصبحت ذكرى.

تعود بي الذاكرة إلى ذلك البيت القديم، بتفاصيله الكثيرة وذكرياته التي لا تنتهي وكأنها سلسلةٌ من الخوف والإحباط والصرامة والقسوة اللامُتناهية.

لطالما حاولت أن أنسى أو أن أتناسى طفولتي، أن أنسى كيف عشتها وبما مرّرت به فيها، أن أنسى كل الأشياء التي تمكنت من أن تخدش مستقبلي لمُجرد أنها وقعت في الماضي، لكنني لا أقدر وهذا ما يوقعني في مصيدة القهر فأتخبّط فيها حتى أجد طريقاً للخروج منها، لكنني أعود للسقوط فيها من جديد مرة أخرى.

أفكر اليوم بالطفل الذي كُنته وبالحلم الذي كان يرافقني طوال تلك الأيام الصعبة، جُل ما كُنت

أحلم به حينها هو أن أغدو رجُلاًا كنت أظنّ أن انضمامي لعالم الكبار هو ما سيُنقذ حياتي من كُل ذلك البؤس الذي كُنت أعيشه، لم أكن أحلم بشيء إلا أن أصبح رجُلاً كبيراً قادراً على أن يبتعد عن ذلك البيت بدونِ أن يعود إليه يوماً، كُنت أشعر بأن تلك المرحلة ستنتشلني من عبودية الأبوين وبأنها ستُلقيني في حضن الرجولة التي لم يكُن لينقذني غيرها.

وها أنا الآن! غدوت ذلك الرجل، وعشت تلك الحرّية التي لطالما نشدتها في طفولتي، لكنني ما زلت برغم ذلك، أسير طفولتي البعيدة، رهن السجّان القديم ذاته وإن لم يُعد قادراً على أن يأمرني كما كان يفعل!

ما زلت أتحمّل محنة اضطرابات أمي، وكأنها وشمت بداخلي الخوف والجُبن والضعف، فلم أعد قادراً على أن أعيش حياتي كرجلٍ جسور

وشجاع، اليوم أنا رجُل مشوّه الدواخل، في صدري حكاية حزينة لطفلٍ صغير بلا حولٍ ولا قوّة ولا رأي.

حكايات الأطفال لا تُنسى، حكايات الأطفال لا تُمحى ولا تُطمس ولا يُعيد تعريف مُبرّراتها شيء، حينما يتعرّض الطفل للعنف في طفولته، لا شيء يُبرّر له ذلك العنف عندما يكبر، وأنا اليوم تعيس بفعل الماضي، الماضي الذي تسببّت عوالقي فيه بأن لا أقدر على أن أعيش حاضراً مُستقرّاً.

حينما تعرّفت إلى مُنتهى، حكيتُ لها حكايتي، لكنّني حكيتها بشكل لا يُشبه الشكل الذي أراه فيها كُلّ يوم بداخلي، حينما حدّثتُ مُنتهى عن تفاصيل أمّي، حدّثتها عنها بظرافة! بلهجة ساخرة وطريقة مُضحكة، أخبرتها عن الكثير من المواقف التي عوقبت فيها من دون أن أرتكب ذنباً، قصصتُ

لها عن حكاية ذلك الولد الصغير العالق بين أبوين لا يُطيق أحدهما الآخر، لكنني لم أخبرها بأنني ما زلتُ ذلك الولد الصغير!

ضحكتُ ومُنتهى كثيراً على تلك الحكايات، سخرنا كثيراً من تلك المواقف، لكنها ضحكت من غرابة الموقف ومن طريقتي في الحديث، لمّا أنا فضحكت كثيراً كيلا تخاف من أن تكون مع رجُل لا يزال عالقاً في بيت بعيد، قديم وحزين، رجلٍ عقدته في الحياة هي أمّه!

أُدرك جيداً كم صُدمت بي مُنتهى، كم دُهشت من أن رجُلاً مثلي غير قادر على أن يعيش الحاضر بلا عُقد تربطه بالماضي، أُدرك أيضاً كم حاولت أن تنتشلني من تلك الطفولة، كم سعت لأن تكون لي أمّاً جديدة، بوجهٍ رقيق وقلب كبير وحضن آمنٍ ودافئ، كذلك فعلتُ أنا، أقبلتُ عليها باحثاً عن امرأة لا تشبه أمّي، امرأة تكون لي أمّاً قبل أن

تكون معي ولي أيّ شيء، لكنني وجدتُ نفسي أرفض تلك الأمومة، وكان الأمومة قد اقترنت في نفسي بملامح أمّي الصارمة وسلوكها المضطرب والقاسي معي ومع إخوتي، لم أُحبّ يوماً أمومة أمّي، وبرغم ذلك لم أقدر على ان أُصدّق أمومة لا تُشبهها في قسوتها وجنوحها.

ليتني أخبرت منتهى! ليتني بكيت وانا احكي لها حكايتي، ليتني أخبرتها كم بكيت خوفاً تحت لحافي في طفولتي وكم يؤلمني قلبي حينما اعود بذاكرتي للوراء، ليتني كُنت شجاعاً بما يكفي لأن أخبرها كم أحتاج لأن تصبر، وكم احتاج لأن تفهم، وكم أحتاج لأن تحنّ عليّ برغم تذبذب مزاجي وبرغم نوبات غضبي وعصبيتي، ليتني أخبرتها كم أنهكتني تلك الطفولة المضطربة، وإلى أيّ درجة أنا عالق فيها، إلى أيّ حدّ أنا ناقم عليها ومُتعثر بها وموجوع منها.

ليتني وليتني، ليتها تعود مُنتهى...

* * *

افكر دائماً، ما الذي أردته قبل أن أعرف مُنتهى؟ أنا

لم أتخيّل يوماً أنني سأتزوّج في الثامنة والعشرين!

لطالما أردت أن أعوّض عن كلّ أيام مراهقتي

وشبابي المقموعة والحبيسة في ذلك البيت القديم،

أردت أن أعيش الحرّية وأن أمارسها لأطولِ زمنٍ

ممُكن، بلا ارتباط ولا التزام ولا زواج، أردت

أن أقوم بكلّ ما يُمكنني القيام به، أن أمارس كلّ

الحماقات، أن أرتكب كلّ ما في العالم من خطايا،

أن أزور كل البلدان، أن أعيش طيشاً لا يُضاهيه

طيش، أن أتنفس هواءً لا يُشبه الهواء الذي كُنت

أتنفسه في شيء.

لذا قُمت بكل ما استطعت القيام به بعد تخرّجي،

اخترت منطقة بعيدة عن مدينتي لأعمل فيها، ابتغاءً حرّية بعيدة في مكان لا يعرفني فيه أحد، مكانٍ أستطيع أن أبدأ فيه من جديد كإنسان حُرّ، مُستقلّ، قادر على أن يقوم بكلّ ما يشتهي القيام به بدون عنف أو تقريع أو تأنيب أو حتى لوم.

قُمت بالكثير خلال أربع أو خمس سنوات، تعرّفت إلى كثيرات، توهّمت الوقوع في الحب كثيراً أيضاً، أخذتني دهشة معرفة الجنس الآخر الذي لم أكن أعرفه كما كان من المفترض أن يفعل رجلٌ في عُمري.

غرقت في مشاعر كثيرة، استغلّت سذاجتي وقلة خبرتي الكثيرات، ومارست الاستغلال أيضاً على كثيرات بعدما اكتسبت الخبرة على أيدي غيرهنّ.

باختصار، أصبحتُ رجُلاً لا يُشبه أمسه أبداً، ولكم أراحني هذا، لكم أسعدني برغم نوبات

النكوص التي كانت تنتابني وتجرّني إلى ذلك الماضي التعيس.

كُنت أظن أنني سعيد، حتى وقعت في مُنتهى!

مُنتهى التي جاءت بشكلٍ استثنائي، بحضورٍ غريب لم أستلطفه في البداية أبداً، ولم تُغرِني بداياته على الإطلاق.

ربما لأنها لم تكن سهلة أبداً، كانت مُنتهى فتاة حذرة، يشعّ من عينيها التوجّس في حضور أيّ غريب عنها. لم تكن تُشبه اللاتي عرفتهن لا بمكرِ بعضهن ولا بسذاجة بعضهنّ، كانت امرأة وسطية، نقيّة السريرة ومُتشكّكة النوايا، لا تُسيء الظنّ ولا تُحسنه، لا تأتمن الآخرين ولا تخونهم، كانت مُنتهى فعلاً امرأة من حياء وذكاء، من شجاعة وخوف، امرأةً لا تُشبه إلا الاستثناء.

تقول مُنتهى إنها لم تستلطفني أيضاً، رأت فيَّ رجُلاً لا يُشبه أحلامها، لكننا برغم ذلك الصدود

في اللحظات الأولى، وجدنا أنفسنا في نهاية الأمر معاً.

كان حبّنا حبّاً عاصفاً، يُشبه حالة الحُب الأولى في حياة كُلّ إنسان، رُبما لأني كُنت حبّها الأول وربما لأنها فعلاً كانت حُبّي الأول رغم وهم الحُب الذي عشته مع غيرها لسنوات.

عندما وجدت مُنتهى، كُنت على استعداد لأن أنسلخ عن كل شيء في حياتي لمُجرد أن أكون معها ولها، كُنت أرى في علاقتنا حكاية لا تُشبه الحكايات ونهاية لا تُشبه النهايات.

كان حُباً أبدياً، هكذا ظننته وهكذا أردته، وأظن أن هذا ما ظنته وما أرادته كذلك.

خاب ظنّي! وخاب ظنّ مُنتهى وفُسخت العلاقة انتهت، ولم تعد علاقتنا أبدية كما أردت وأرادت لكنني لا أعرف كيف حدث هذا! كيف فشل حبّنا هذا الفشل الذليل؟ لمَ لم يصمد؟ لمَ لم يُقاوم

ـم تنتهي زواجنا برغم الحُب الذي أكاد أجزم بأنه
لن ينتهي يوماً بيننا؟
طالما ظننت أن الحُب هو شرط استمرارية أيّ
علاقة، فكيف توقفت علاقتنا، لمَ لم تستمر؟
أنا لا أعرف، فكيف ستعرف مُنتهى؟

* * *

عينان ضيّقتان، جسد هزيل وظهر منحنٍ، بياض
يكسو رأسه ولحية بيضاء صغيرة، عصا يتّكئ
عليها برغم نشاطه ونحول جسده، هكذا كان
أبي، النصف الآخر من طفولتي البائسة.
أظنُ أنّ من الغريبِ أن أمنحه "نصف الطفولة"
رغم غيابه الذي ربما جعل ذكراه في قلبي أخفّ
حدّةَ وأكثر حنيناً بالمقارنة مع ما أحمله في قلبي
لأمي.

زيجات أبي المُتكرّرة وسفره شبه الدائم جعلا احتكاكه بنا أخف وأقلّ وأسرع ممّا كانت عليه علاقتنا بأمي، وأظن أن هذا ما تسبّب بأن يجعله أقرب إلينا منها. "الغياب" هو ما جعله إلينا أقرب!

لكنني برغم ذلك الحنين، كُنت أكره الأيام التي يكون فيها معنا، كُنت أكرهها كثيراً لأنني كُنت أُدرك جيداً كما كان يُدرك إخوتي وأخواتي أن وجوده في المنزل يعني صراعاً لا ينتهي مع أمّي، صراعاً لا يدفع ثمنه غيرنا دائماً.

والدي لم يكُن مثالياً أبداً، ولم يكُن أباً عاطفياً معنا، لكنه كان في نهاية المطاف أباً لنا، نشعر بانتمائنا إليه ونخشى كثيراً خسارته، نحنّ إليه ونشتاق له في غيابه رغم وجوده الصعب والقاسي علينا.

لم أشعر يوماً بأن والدي قد ضربني ليقهر أمراً فيَّ، لم أشعر يوماً بأنه ضربني لأنه يكرهني، كان

يضربنا في لحظات انفعاله وحينما يخطئ أحدنا،
لكنه برغم ذلك لم يكُن قاسياً بفطرته كأمّي.
ما زلتُ أحتفظ لوالدي بالكثيرِ من المواقف
التي بقيت في ذاكرتي، لتُضيء وجه الأبوة المُعتم
فيها بين الزمن والزمن الآخر.

أذكر أنه في أحد أيّام عيد من الأعياد، كُنا عائدين
من مأدبة للعيد في بيت أحد جيراننا بالحيّ، كان
الوقت ظهراً وشمس نجد في أشرس حالاتها
وأكثرها حدّة.

كنا نقطع خطواتنا أنا وإخوتي ولهيب الشمس
وحرارتها تلفح أوجهنا لدرجة أن لا نقدر على أن
نرفع أعيننا عن الأرض.

أذكر كيف رفع والدي شماغه القديم عن رأسه
وكيف وضعه على رؤوسنا نحن الثلاثة كخيمة تُظلّل
علينا، طالباً أن يُمسك كل واحدٍ من شقيقيّ بطرف
الشماغ كيلا يقع وبقيت بينهما في المُنتصف تماماً،

مُمتناً للشمس التي أشعرتنا بأبوّة ذلك الرجُل.

أبتسم دائماً حينما أتذكر ذلك الموقف، ابتسم للأبوّة التي لا بدّ من أن تظهر رأسها بين الحين والآخر حتى مع أصعب الرجال وأكثرهم صرامة، أبتسم للطفل البسيط الذي كُنته، الطفل الذي كان حسّاساً وباحثاً عن أيّ لمسة حانية مهما كانت بديهية وطبيعية ليمتنّ عليها ويسعد بها.

هكذا كُنت، طفلاً مُمتناً لأيّ بادرة حُبّ، وكأنّ جفاف طفولتي علمني قيمة تلك اللمسات وتلك المشاعر.

اليوم أنا لا أحمل في قلبي لأبي إلا كُل الامتنان، الامتنان على كلّ اللحظات البسيطة التي جعلني أشعر فيها بمحبّته لي.

اليوم أنا مُمتن لأبي على اللحظات التي لم يُمارس عليّ فيها قسوته، مُمتنّ له على غيابه الذي جعلني أشعر بالشوقِ والحنينِ إليه.

--

اليوم أنا مُمتن لأبي على أشياء كثيرة، أشياء لا يمتن الأبناء لآبائهم عليها، لكنني هكذا أشعر اليوم! فعلاً فعلاً أنا مُمتن...

* * *

انتظرتُ كثيراً، انتظرتُ طويلاً حتى وجدت نفسي، ولا أفهم كيف ضاعت نفسي منّي فجأة!

كانت مُنتهى هي لحظة استقراري، نقطة الارتكاز، نقطة تتمحور حول نفسي، ذاتي وأناي، نقطة تتشكل حولها كل نقاط الفرح والنجاح والراحة والسعادة.

لا أعرف كيف انغمسنا بمشاكلنا فجأة! وقعت مُشكلة فجَرّت مشكلات... ولم نقدر على أن ننفكّ عن سلسلة الصراع تلك، وجدنا أنفسنا نغرق بداخل تلك الدوامة أكثر فأكثر، سقطنا

فيها، هوينا، وعدتُ أنا لذلك الطفل البعيد بتيهه وتخبّطاته وبعثرته اللامُنتهية.

أُدرك اليوم كم أنا رجُل حادّ الحُزن مثلما أنا مُتطرّف في السعادة، حينما أقع في الحُزن أقع فيه حتى آخر شعرة في راسي، أغوص فيه كحجرٍ صغير سقط على سطح نهر، مثلما أتلوّن فرحاً في لحظاتِ سعادتي وكأنني بركان من قوس قزح.

حينما انفصلت ومُنتهى مارست التطرّف في غيابها مثلما مارسته دوماً في حضورها.

عبثتُ حتى آخر حدود العبث ثمّ سقطت على حدود الوحدة تعباً بلا أسلحة ولا زاد ولا حتى سند.

أعود إلى صورِ مُنتهى في هاتفي، أتأمّل التفاصيل التي غفلت عنها، لطالما كانت مُنتهى جميلة في زواجنا، رُبما كانت أجمل في الحُبّ وقبل أن نتزوّج، لكنها باتت اليوم بعد انفصالنا في أجملِ حالاتها، ربما لأنها باتت مُحرّمة عليّ

وربّما لأنها لم تعد لي.

أظن اليوم أنها كانت دائماً في أجمل حالاتها، لكنني كُنت مشغولاً بصراعاتي الداخلية لدرجةِ أنّني لم ألحظ ذلك أو ربما لاحظته بلا تقدير مني لتلك التفاصيل الصغيرة.

لا يفرق الرجل العاشق عن غيرهِ من الرجال في نظرته إلى حبيبته إلا بمُلاحظته لتلك التفاصيل وتقديره لها، وأعرف اليوم أن تفاصيلها الصغيرة، الدقيقة، الحميمة لن يراها أحد مثلما كُنت أراها ولن يلحظها رجُل مثلما ألحظها الآن.

غادرت مُنتهى وبقيت تفاصيل صغيرة، تفاصيل لا قدرة لرجُل عاشق على أن ينساها.

* * *

تقول شقيقتي نجلاء إنني أفضل رجُل أخ في العالم!

لا أعرف لما استشهدتُ بشهادة نجلاء لدى مُنتهى! وكأنني أستعين بشهادتها لتبرير موقفي في الرجولة!

أذكر كيف ابتسمت مُنتهى تلك الابتسامة الساخرة الممتزجة بالمرارة، قالت: أن تكون أفضل أخٍ في العالم لا يعني أنك أفضل زوج في العالم! وبالمناسبة صدقت نجلاء! أنت أفضل أخٍ في العالم، ليتك كنتَ أخي!

كُنت أعرف أنها أرادت أن تقول بشكلٍ غير مُباشر "ليتك لم تكن زوجي!"، أرادت أن تقول "أنت أفضل أخٍ لكنّك أسوأ زوجٍ"! لكنها لم تقلها، بغضّ النظر عن أنها لم تكُن بحاجة لأن تقولها لأدركها، هي أيضاً لم تقلها لأنها لم تعتد أن تجرح أحداً مهما أساء وتمادى معها، هي المخلوقة من لطف ومُجاملة ورقّة، حينما قرّرت أن تُخبرني كم هي نادمة على زواجي بها قالت

"ليتك كنت أخي!".

لكنني لا أُريد أن أكون أخاها كي ترضى عنّي وعن علاقتي بها، لا أحتاج لأن أصبح أخاها كي تُحب الرجل الذي أنا عليه.

أردتها أن تُحبّني كما أنا، أن تقبلني كما أنا بعيوبي كُلّها، لكنها لم تقدر ربما لأن معشري يختلف عن الرجل الذي عرفته قبل الزواج، ربما أحبت فيَّ رجُلاً لا يُشبهني، رجُلاً أردت أن أصبحه في عينيها وفي قلبها لكنني لم أستطع أن أعيش طويلاً في ثوبِ ذلك الرجل.

أحبّت هي رجُلاً يُجيد العشق لكنه لا يُجيد الزواج، أما هي فأحببتها بكُلّ حالاتها، ربّما لأنها جاءتني كالواقع، لا يشوبها زيف ولا تمثيل، عاشرتها كما عرفتها منذ بداية علاقتنا وعاشت معي سنوات زواجنا بذات الروح التي عرفتها فيها رغم كلّ ما مرّت به علاقتنا من صعاب إلا أنها

ظلت كما هي، كسدرةٍ أصيلة، لم تتغير، لم تتطبّع ولم تتبدّل ولا اظنّ أن قوة في العالم قادرة على ان تغيّر روح الحقيقة التي تسكنها.

لم يشفع ثبات مُنتهى تبدّلي وتغيّري، فاصطدمنا حتى انقطع آخر نفَسٍ في العلاقة.

اليوم أريد أن أقول لمُنتهى أشياء كثيرة، أحتاجُ لأن تسمعني، لكنني لا أظن أنني سأقدر على أن أقول لها شيئاً لو قُدّر لي أن أتحدّث مُجدّداً معها.

هُناك أمور عندما تنتهي يُصبح من الصعب أن يتحدّث الإنسان فيها، من الصعب أن يطرق بابها من جديد، أن يُبرّرها، أن يُفسّرها، حتى وإن كانت تحمل وجوهاً تُفسّر وأمور تُبرّر.

وأمورنا أنا وهي باتت هكذا، لا تحتمل التفاصيل ولا التبرير.

اليوم أحتاج لأن أخبرها كلّ شيء، أن أفسّر لها أموراً معلقة، لكنّني لا أقدر.

من قال إنّ من الطبيعي أن تجتمع الحاجة والرغبة والمقدرة؟

* * *

كم هو صعب الوصول إلى النضج!

وعرة هي الدروب التي تُفضي إليه، مُكلفة هي، مُستنزفة للمشاعر والأفكار والأحلام والعمر...

لا أعرف لما أنا بعيد عن النضج رغم أعوامي الاثنين والثلاثين، لا أظنّ أنني قريب من حدود النضج أبداً برغم التجارب التي أضنتني والأحداث التي علّمت بداخلي وعلمتني، بعيدٌ أنا عنه، تفصلني مساحة عظيمة من التخبّط وعدم الاستقرار.

كُنت أظن دائماً أن النضج قرين العُمر، ظننتُ أن الثلاثينات هي أولى مراحل النضج لكنني وجدت نفسي في ثلاثينات العُمر أتخبّط بتجارب صعبة لم

أقدر على أن أتسامح معها أو ان أتجاوزها.

أعرف اليوم أن أول دروب النضج هو أن نتسامح، أن نغفر، أن نختلق الأعذار لمن يُشاركوننا الحياة من حولنا.

ربّما لهذا لم أنضج بعد! ربما لأنني عالق ما بين الحقد والمغفرة، الحقد على كُل من أساء إليّ وكُل من غادرني بدونِ أن أكون مُستعداً لمغادرته.

اليوم أحقد قليلاً على أمّي التي أحبّها رغم كلَ شيء والتي لطالما أساءت إليّ وجرحتني، اليوم أحقد كثيراً على مُنتهى التي لم تُسئ إليّ لكنها غادرتني.

اليوم أحقد على المرأتين المُختلفتين رغم حُبّي لهما وحاجتي إليهما.

لا أعرف كيف أحقد على من أُحب مثلما لا أعرف كيف لم أنضج رغم مرارة التجارب!

بتّ أعرف اليوم أنّ لكُلّ قاعدة شواذاً، ولكلّ

عموم خصوصاً، ولكل نظرية أوجهاً كثيرة مُختلفة، يثبتها بعضها وينفيها البعض.

مُنتهى لا تُشبهني في هذا، تزوّجتها في عامها الثالث والعشرين لكنها كانت تتجاوزني في دروب النضج كثيراً، كانت تسبقني بمراحل طويلة، أنا الذي أكبرها بخمس سنوات من العُمر وعشرات السنوات من التجربة، أنا الذي كُنت أفوقها في كيفية وكمّية وماهية التجارب.

لكن نضج مُنتهى لم يشفع لي عندها طويلاً، ملّت منّي مُنتهى أو ملّ صبرها منّي، ربما تجاوزت فعلاً صبر النضج، نفد صبرها وتبدّد نضجها واختارت أن تعيش صبراً آخر، وُنضجاً آخر مع رجُلٍ آخر!

سألتها في أحد نقاشات وجدالات ما قبل الانفصال الكثيرة والطويلة والمضنية:

– هل ستتزوجين غيري إذا انفصلنا؟

– وفيمَ يهمّك الأمر؟

يهمني: لكنني اريد ان آعرف، هل تفكرين في الزواجِ مرة أخرى؟

- لن أُجيب عن سؤالٍ لا يهمّك!

- حسناً، اعتبري أنه يهمّني، هل ستتزوجين؟!

- وكيف أعرف؟ هذه أمور لا نعرفها.

- هل تنوين ذلك؟

- لم يكن بنيّتي أن أتطلق منك حينما تزوّجتك، فكيف أنوي أن أتزوّج حينما أقرّر أن أتطلق منك؟

كان جوابها لطيفاً، لكنه لم يُعجبني أبداً، أبداً! ليس هذا ما أردتُ سماعه، لستُ هذا ما احتجت لأن أعرفه!

بطبيعةِ الحال لم أتوقع أن تنفي فتاة في مُنتصف عشريناتها أن تتزوّج بعد أن تنفصل عن رجُل لم تعد تُحبّه، مثلما لم أتوقع أن تُقرّ بأنّها تنوي الزواج لأنني أُدرك أن امرأة خُلقت من احترام كُمنتهى لن تجرح رجُلاً ما زالت في عصمته بأمرٍ كهذا،

لكنني رغم ذلك لم أكُن أنتظر ذلك الجواب الذي أجابتني عنه، لم يكُن جواباً موافقاً ولم يكُن نافياً، وأنا لا أُحب الحلول الوسطى، لا أُحب الإجابات المُتأرجحة ولا العلاقات المُعلقة.

أُحب أن يكون كُل ما في حياتي قطعياً، نهائياً، حتمياً وجازماً، لم أُحب يوماً الألوان المُتدرجة ما بين الأبيض والأسود، كُنت أُريد يقيناً كالبياض ونهائياً كالسواد، ولم أكن لأقبل حالاً تحتمل الكثير من الأوجهِ والألوان.

كانت لديّ أسئلة كثيرة، كُنت أحتاج لأن تُجيبني مُنتهى عنها قبل الطلاق، لا أعرف لماذا كُنت أُصرّ على الحصول على إجابات كُنت أعرف أن معظمها سيجلدني كثيراً، لا أعرف لماذا كُنت أُلحّ عليها في الأسئلة وكأنني أحتاج لأن تُقيم أيّامها معي ومدى رضاها عن علاقتنا قبل الرحيل.

أنا لم أتمسّك بتلك العلاقة، لم أسأل مُنتهى

البقاء أبداً، لم أمنعها، لم أطلبها، لم أستجدها، كُلَ ما فعلته هو أنّني أبديت رغبتي في فهم الأسباب، كُنت أقول لها إنني أحتاج لمعرفة الكثير من الأمور كيلا أقع في نفسِ الأخطاء في المستقبل.

أردتُ أن أجلدها بفكرةِ أنني قادر على أن أتجاوز زيجتنا، وأنني سأعبر علاقتنا لأُخرى لن أخطئ فيها مثلما فعلت معها.

أردتها أن تفهم أنني سأتعلم منها ومن خلال فشلي معها كيف أنجح مع امرأةَ أُخرى في علاقة وزيجة أُخرى.

أعرف أن ذلك كان قاسياً ولا يُشبه النبل في شيء، لكنني احتجتُ لأن أثأر لقلبي، لكرامتي، لرجولتي التي جُرحت بقرارها الانفصال عني.

لكن مُنتهى برغم قسوة الفكرة لم تقاومها ولم ترفضها ولم تُبدِ انزعاجها منها، جارتني في الأمر، ناقشتني في كُلّ ما أردتُ أن أُناقشها فيه وكأنها

ترغب فعلاً في أن تساعدني على النجاح مع امرأة غيرها.

ردّت لي مُنتهى الصاع صاعين، جرحتها بإبداء لامُبالتي تجاه رحيلها، وجرحتني بإبداء اهتمامها بنجاحي مع سواها.

لم يكُن فراقها حلواً، كان شديد المرارة، كحياتي البعيدة، كتلك الطفولة، كأيامِ مشهور الصغير تلك، كأمّي...!

* * *

أعود بذاكرتي إلى الطفل الذي كُنته، الطفل الذي أحلم بأن أنجب مثله لو تمكنت من أن أتجاوز عُقدة فكرة الأبوّة، أُريد طفلاً مثلي بطفولة لا تُشبه طفولتي ووالدين لا يُشبهان والديّ أبداً.

أشعر أحياناً كأن الأبوّة هي ما سينقذني من

طفولتي البائسة، وأشعر أحياناً بأنها لا تليق بي او ربّما لا أليق بها، أخاف كثيراً من أن أصبح نسخة أبوية مُكرّرة عن أبي، أخشى ان لا أقدر على ان امنح أطفالي شيئاً لم أقدر على أن احصل عليه من أبويّ، ألا يُقال إن فاقد الشيء لا يعطيه؟ فكيف أجازف بأمرٍ كهذا وأحرم أطفالي من شيءٍ لم يقدّمه لي والدي برغم حاجتي إليه؟

اتفقتُ مع مُنتهى على أن لا نفكر في الإنجاب في السنوات الخمس الأولى من زواجنا، لكنّ رؤيتها وهي تلاعب الأطفال من حولنا كانت تجعل قلبي يخفق، يلين، كُنت أراقب عينيها حينما تلمس أحدهم فأشعر بالنشوة تتسلل إليّ بسبب تلك السعادة التي تتجسّدها بوجودِ الأطفال من حولها، لكنني كُنت جباناً جداً في ما يتعلق بأن أُصبح يوماً أباً لأحدهم، كُنت احتاج لأن أتخلص من كُل مخاوفي قبل أن أُقدم على خطوة مصيرية

كتلك الخطوة، ولم تكُن مُنتهى تُجادلني كثيراً بخصوص هذا الأمر رغم أنني كُنت أعرف أنها لم تفهم جيداً أسباب رفضي إيّاه، كانت تُبدي تفهّمها لرغبتي لكنها لم تكُن تفهمها! وقد كان هذا صعباً عليّ لأنني كُنت أحتاج لأن تفهم أكثر من حاجتي لأن تتفهّم!

أظنّ أن مُنتهى فكرت كثيراً في أن يكون سبب عدم اقتناعي بمشروع الإنجاب هو طبيعة علاقتنا، سألتني مرّة: ألا تظن أن وجود طفل صغير سيكسر حاجز الملل الذي بدأ يتسرّب إلى علاقتنا؟

- لسنا جاهزين للإنجاب بعد!

- أنا جاهزة، لمَ لستَ جاهزاً؟

- - لا يزال الوقت مُبكراً للتفكير في الأمر؟

- نحن متزوّجان منذ خمس سنوات، وما زلتَ تظن أن الوقت مُبكر؟

- لا بأس، مثلما قدرنا على أن نؤجّل الأمر

نخمـ سو ت نحن قادرون على أن نؤجّله لسنة أخرى!

سكتت قيلاً وقالت: ألست مرتاحاً معي؟

– م هذ لسخف؟ لمَ تقولين ذلك؟

– أشعر أحياناً كأنك لا تُريد الإنجاب منّي انا بالذات!

– أنتِ مجنونة فعلاً! إن لم أُنجب منكِ فممّن سأُنجب؟

– لا أعرف، يبدو الأمر هكذا أحياناً.

قُلت لها ليلتها إنني لن أحظى بأطفالٍ من غيرها أبداً إن لم أحظ بأطفالٍ منها، كُنت صادقاً حينها وما زلتُ أشعر كما شعرت تلك الليلة، أظنّ أنني قد أقع في الحُب يوماً، ربما أتزوّج مرة أُخرى او مرّتين او حتى ثلاثاً، لكنني لن أقدر على أن أساعد على جلبِ طفلٍ إلى هذا العالم ما لم تكن مُنتهى أمّه!

اليوم تُخيفني فكرة الأبوّة أكثر بكثيرٍ ممّا

كانت تُخيفني في السابق، سابقاً كُنت سأُصبح أباً بجوارِ أم أكاد أجزم بأنها كانت ستصبح أماً عظيمة لأطفالي، اليوم لا أعرف أيّ أمّ تلك التي قد أشاركها أطفالاً! لا أعرف إن كُنت سأجد امرأة أثق بمشاركتها أبنائي، امرأة أثق بأنها لن تجعلهم مثلي ولن يعيشوا معها ما عشته مع أمي.

اليوم تضخمت مخاوفي، تعملقت، طالت سيقان الشك بداخلي، وطغت على كُلّ يقين اكتسبته حالما عرفت مُنتهى.

اليوم أعود إلى ثورة الشك في داخلي ولا أعرف أتقضي عليّ، أم أقضي عليها، أتنجو مني أم أنجو منها؟

* * *

لم أكُن أُريد أن أكون أقلّ من الأطفال، ولم أكن

اريد أن أكون أفضل منهم، كُنت أُريد أن أكون مثلهم تماماً، لا ينقصني عنهم شيء ولا يزيدني عنهم شيء، أردتُ العدالة فقط، لا نقصان ولا زيادة، ولا تمييز سلبياً أو حتى إيجابياً.

الحقيقة أن الأطفال لا يحتاجون للتميز مثلما نحتاج إليه نحن البالغين، نحن الذين مررنا بالكثير من مشاعر النقص والضعف التي تحتاج دائماً لأن نُشبعها بالتقدير والشعور بأننا مختلفون عن الآخرين، مُميزون بينهم، ومتفوّقون عليهم بشكلٍ ما وطريقةٍ ما.

تغيّرت كثيراً نظرتي للأمر حينما كبرت، تغيّرت حاجتي للاختلاف، اليوم بتُّ أتوق لأن أكون أفضل البشر، أنجحهم وأكثرهم سعادة.

اليوم أحتاجُ لأن أكون الأفضل، لأن أُشبع حاجة ما في نفسي، حاجة تشعرني بالتفوّق على الآخرين ليكون التفوّق هو ثمن الطفولة التعيسة التي عشتها.

ألا يُقال إن المعاناة هي ما يخلق العظماء؟ أليست معاناتي كفيلة بأن تجعل منّي رجُلاً عظيماً لا يُشبهه أحد، فلمَ لم أصبح عظيماً ولمَ لا أزال أعيش الحياة كما يعيشها المليارات من البشر؟

اليوم أفكر في العراقيل التي تعرقل حياتي اليوم، حينما أتأمّل حياتي بعمق، لا أجد في حاضري هموماً كثيرة، لكنني أجد همّاً كبيراً جرّ خلفه سلسلة قصيرة من الهموم الكبيرة.

باختصار، أنا لا أعيش هموماً كثيرة، لكنني أعيش حتماً هموماً قليلة وضخمة!

أتذكر ذلك الطفل الصغير الذي كان يضع يديه على أذنيه ويُغمض عينيه بشدة أمام صراخ أمّه التي كانت تقف أمامه ثائرة كبركان، أذكر كيف كنت أغمض عينيّ بقوة كيلا أرى عينيها وهما تقدحان قسوة، كُنت أغلق أذنيّ خوفاً من ذلك الصوت الهادر، الصوت الذي كان يجعلني أصغر

أمامها أكثر ممّا كُنت صغيرا حجماً وعُمراً.

كُنت أغمض عينيّ وأذنيّ كيلا أسمعها ولا أراها، كيلا تكون موجودة أمامي، كيلا تُهينني، كيلا تضربني، كيلا تؤلمني وكيلا تُخيفني وتدفعني لأن أكرهها.

كُنت خائفاً من أن أكرهها أكثر من خوفي منها، لم أكن أُريد أن أكرهها، كُنت أُريد أن أتمسّك بطرف الحُب العالق بيننا، لأنني طفلها ولأنّها أمّي!

أيّ طفل قادرٌ على أن يكرهَ أمّه؟! أيّ أمٍّ قادرة على أن تدفع طفلها لأن يكرهها؟!

كُنت أُريد أن أحتفظَ لها في قلبي بشيءٍ من الفطرة، أردتُ أن أحبّها بيني وبين نفسي إلى الأبد، رغبت في أن أحتفظ بها بداخلي كأم، كبقيّة الأمهات، رغبت في أن أتكئ عليها لأنني كُنت طفلاً ولا مُتكأ للطفل عدا أمّه، كُنت أفكر بطريقة طفوليّة، إن لم أتّكئ على أمّي فعلى من سأتّكئ؟ إن

لم تحمني أمي، فمن سيحميني؟ إن لم أُحب أمّي
فمن سأَحبّ؟... كان السؤال الأقسى دائماً "إن
لم تُحبّني أمّي، فمن سيُحبّني؟".

أفكّر دائماً في ما خلّفه بداخلي هذا السؤال،
يُخيّل لي أحياناً أن معظم خيباتي مع النساء وكل
علاقاتي العقيمة كانت بسببه، زيجتي الفاشلة رغم
حُبّي لزوجتي كانت بسبب هذا السؤال!

من سيُحبني إن لم تُحبّني أمي؟

أحاول أن أُبرّر لها أحياناً بداخلي، أختلق لها
الكثير من الأعذار، ربما هي تُحبّني، ربما كانت
تحبّني بصورة مُختلفة وبطريقة مُختلفة، ربما
لم تكن تُجيد التعبير عن الحُب، ربما كانت
طريقتها في الحُب تختلف عن طريقة جميع
الأمّهات.

أحاول أن أبرّر لها، لا رحمة لها بل رحمة للطفل
المكسورِ بداخلي، الطفل الذي لا يزال يُفكر في

كُل يوم لمَ كانت أمه مُختلفة؟! لمَ لم تكن ككُل الأمهات؟!

أجد في أنها كانت قاسية معنا جميعاً عزاءً لي في بعض الأحيان، أسترجع صورتها وهي تُمارس شراستها على إخوتي وأخواتي، فيتمزق قلبي عليهم ويلين قلبي عليها، لأنها لم تكن تكرهني بعيني ولم تكن تقسو عليّ لأنني غير جديرٍ بمحبّتها بل لأنها هكذا! هي هكذا، تتعامل معنا جميعاً بالقسوة نفسها، والغضب ذاته والشراسة عينها.

لم أكُن السبب، لم أكُن السبب، لكنني ما زلتُ أفكر أحياناً، من سيُحبّني فعلاً إن لم تُحبّني أمي؟!

* * *

أتأمّل هذا الغياب!

لا أعرف لماذا وكيف استسهلته؟ لمَ توقعت أن

يمرّ عليّ كما تمرّ عليّ أحداث الحياة التي أقع فيها وأنهض منها؟

عادة نحن نخشى نخشى الإقدام على النهايات، نخشى أن نكسرَ حاجز الخوف وأن نُقدم على المجهول، نخاف أن نُغيّر ما اعتدنا عليه، مُتمسّكين بأحوالنا المعتادة بلا مُقامرة ولا مُجازفة.

دائماً ما يكون الفقد كبيراً في بداياته، يُخلق الفقد كبيراً ثمّ يصغر ويصغر ويصغر حتى يُصبح بقايا ذكريات، لكنني لم أشعر بهذا! لم أشعر بالغياب يتضاءل بداخلي، فبرغم أن فكرة الغياب لم تكُن صعبة بالنسبة لي برغم الحُب والسنوات التي كانت تربط بيني وبين مُنتهى، وبرغم أنني ظننتُ أن غيابها سيكون كأيّ غياب، ألم كبير يتناقص ويتناقص حتى يتلاشى، لم يتضاءل الغياب بداخلي ولم يصغر.

لم أكن أعرف أن فقد مُنتهى سيتضخم ويتضخم

حتى يكاد ينفجر بداخلي، لم أكُن أعرف ان شجاعتي في الإقدام على النهاية بقلبٍ جسور لم تكُن إلّا حماقة لا تُغتفر.

ليتني بقيت على الحياة التي اعتدتُ عليها، ليتني لم أجرؤ على بداية جديدة وحياةٍ جديدة.

أدرك الآن كم كانت حياتي مع مُنتهى تقارب المثالية، أدركت بعد الغياب أنّني كُنت سعيداً نسبياً معها، برغم مُنغصات الماضي ومُكابرة الحاضر ومخاوف المستقبل.

تسألني أمي في كُل مرّة أزورها فيها عن أحوال عزوبيتي، تُحدّثني عن فتيات تعرف أمّهاتهن، تذكر لي أسماءهن وممّن يتفرّعن قبائلياً، تصفهن لي مُشجّعة إيّاي على أن أتزوّج هذه المرّة فتاة من ثوبي، فتاة تليق بعاداتِ عائلتنا وبتقاليده وبمقاييس أمّي!

تشتم أمي مُنتهى في كُلّ مرّة يُطرح فيها موضو

الزواج، تلعنها مُتشدّقة بأنها حذرتني كثيراً من الزواج بها وبأمثالها!

لا تعرف أمي أنني تزوجت مُنتهى بعد حكاية حُب، تظنّ أن أختي "نجلاء" هي من اقترحت عليّ هذه الزيجة، لذا تلوم نجلاء كثيراً على هذا الاختيار، وتتحمّل نجلاء التي صارحتها بعلاقتي وحُبّي بمُنتهى تلك الملامة بدونِ أيّ ذنب عدا أنها أرادت أن تساعد أخاها الأصغر في أن يختار ولو لمرة واحد أن يعيش الحياة كما يُريد هو لا كما تُريد أمي لي ولنا.

عارضت أمّي كثيراً زواجي ومُنتهى، رفضت منذ البداية أن أتزوّج بفتاة تنتمي لعائلة مُتحررة قياساً بانغلاق عائلتنا وتصلبها، الحق أن عائلة مُنتهى لم تَكُن يوماً مُنفتحة لدرجةِ أن يُطلق عليها عائلة "مُتحرّرة" لكنها كانت مُتحرّرة فعلاً بالمقارنة مع انغلاق عائلتي ومُحافظتها.

لم تُحب أمي مُنتهى يوماً، بينما حاولت مُنتهى كثيراً أن تُحب أمّي، لكن تلك المحاولات لم تدُم، لم تكن لتنجح تلك العلاقة، لذا أسعد طلاقنا أمّي كثيراً!

أعتقد أنها فرحت بطلاقي أكثر بكثيرٍ ممّا فعلت بزواجي، وكأنها تأبى أن أكون سعيداً سواء أكنت تحت جناحها أم ظلال امرأة أُخرى.

قالت لي أمي وهي تودّعني في إحدى زياراتي لها، إنها هي من سيختار لي عروسي هذه المرة!

ضحك الطفل الجريح بداخلي بمرارة وحقد:

أأهرب منها لأعود إليها في جسدٍ وملامح امرأة أُخرى؟ أأحلّق بعيداً عنها لأنضمّ لأنثى لا بدّ من أنها ستكون نُسخة عنها!

أردتُ أن أقول لها: لا! لن تختاري لي شيئاً في ما بقي من حياتي، أبداً!

لكنني ابتلعتُ تلك الرغبة لأنها برغم كلّ

مضى، ما زالت وستظل أمي، ابتلعتُ حاجتي للعتب واللوم والدفاع المُتأخر عن النفس والحق!

أشتاقُ كثيراً لمُنتهى حينما أكون مع امي، يمزقني ذلك الفرق بينهما، ذلك التضادّ يوصلني إلي يقين حيال ما أرغب فيه فعلاً، لمن احتاج، من أُريد ولمن أتوق!

أفتقد مُنتهى! أفتقد الأمان الذي كُنت اشعر به في وجودها، أفتقد الثقة، أفتقد القوة، الراحة التي كُنت أشعر بها وأنا معها.

أفتقد كفّها الحانية ومسحة رأسها الدافئة، افتقد تفهّم عينيها وهدوء صوتها وثقتها التي تبثّها لي فيه.

مرّت أشهر كثيرة على انفصالنا، قرابة السنة! عام مضى ولا يزال الغياب يلوكني، ما زلتُ أعاني من أعراض الانسحاب، ما زلت أتصارع مع تفاصيل وبقايا الرحيل.

عام مضى وما زلتُ عالقاً بعلاقة مُنتهية وامرأة

ما زلتُ أحبّها، امرأة لم أسمع صوتها ولم أرَها ولم ألمسها منذ عام.

أيّ شوق هذا؟! ما هذا الغياب؟!

* * *

كانت عودتي إلى الرياض خطأً جسيماً، ساءت كُلّ أحوالنا حينما عُدت إليها، وكأننا ندفع ثمن إقامتنا فيها حظاً سيئاً.

عندما غادرت الرياض وأقمت في جدّة حيثُ اخترت أن أعمل هناك، غادرتها بدونِ أيّ نيّة للعودة، نويت أن أعيش بعيداً عنها كلّ ما بقي لي من عُمر، ولا أعرف لمَ عُدت إليها بعد زواجي بثلاثِ سنوات.

كان قرار العودة غريباً، مفاجئاً ولم أخطط له أبداً، تلقيتُ عرضاً من إدارة البنك الذي أعمل فيه

لشغلِ وظيفة أفضل في إدارة البنك بالرياض،
أعرف كيف ضعفت أمام الأمر، لا أعرف لمَ قبلـ
أن أعودا ربما ظننتُ أن تسلحي بمُنتهى سيحمين
من كُل الذكريات التي تربطني فيها، ظننتُ أ
عقدتي انحلت بعد إقامتي بعيداً عنها وبعد زواجي
من مُنتهى، هكذا ظننت، لذا جازفت بالعودة فيم
يبدو!

عُدت وعادت إليّ فيها كُلّ الأوقات السيّئة،
وجه أمّي القاسي، تفاصيل أبي شبه الغائب عن
طفولتي، تحرّشات شباب الحيّ بي في الشارع
والمدرسة، والصمت الذي كان سجّاني!

عادت لي تلك الغمّة، تلك اليد التي كنت تقبض
على رئتي لتجعل أنفاسي تتثاقل، رجع إليّ ذلك
الشعور بالضعف والوهن طوال الوقت، أصبحتُ
مهموماً فجأة، بجسدٍ كسول وأفكارٍ سلبيّة،
وتشاؤم لو وزعته على العالم أجمع لأرداهم يأساً!

تغيّرتُ حينما عُدت! الحق أنّني عُدت لما كُنت
عليه قبل انتقالي إلى جدة وقبل زواجي بمُنتهى،
عُدت ذلك الطفل الذي كان يتظلل تحت الهمّ
والخوف وانعدام الثقة.

عدتُ ضعيفاً، هشّاً، مُتردّداً كما كُنت، شعرتُ
كأنني طفل صغير في جسدِ رجُل، شعرتُ بنفسي
أصغر، وأعود للطفل الذي كُنته بلا حول ولا
مقدرة.

لم تفهم مُنتهى ذلك النكوص، لم تفهم سبب
انتكاستي ولم أقدر على أن أبرّر لها حالتي، كبرت
المساحات بيننا، كُنت أراها تبتعد بدونِ أن أقدر
على أن أمدّ يدي لها أو أن أصرخ فيها "عودي"!

كنت أشعر كأنها بلا صوت، فأنين الأصوات
الطفولية بداخلي كان يعلو على كُل صوت، لم
يكُن صوتها يصل إلى أعماقي، ولم أقدر على
أن أوصل صوتي لها، فظللنا كصنّارتين تحوكان

نصمت حتى انتهى زواجنا.

ربّما عودتي إلى الرياض جعلتني اشعر كأنني عدتُ إلى حضانة أمّي، شعرتُ كأنها عادت وصيّة عليّ، وكأنني عدتُ أسيراً لأمومتها الشرسة، كُنت أشعر كأن حياتي عادت محكومة بما تراه وما تظنّه وما ترغبه، وكأنّ عودتي سلبت منّي حقوقي وخياراتي وحُرّيتي قبل أيّ شيء آخر.

لم أكن سعيداً بالعودة، ولم تكن مُنتهى كذلك، لكنني كُنت قد عُدت ولم يكُن هُناك مجال للمغادرة من جديد، لم أكن قادراً على أن أبتدئ حياة جديدة أخرى في مكانٍ بعيدٍ آخر، قرّرتُ أن أواجه الرياض، أن أتواصل معها، أن أتكيّف فيها وأن أتعايش معها، لكنني لم أقدر، راهنت على التعايش معها، وبطبيعة الحال خسرت زواجي، وخسرت نفسي وخسرت الرهان!

لا أعرف من ألوم اليوم بداخلي، أألوم الرياض

على فشل زيجتي، أألوم أمّي، أم ألوم نفسي التي لم تقدر على أن تنهض من حُطام الماضي وبقايا الذكريات؟!

ألوم مُنتهى أحياناً في أعماقي، بداخلي غضب عارم عليها، ألومها لأنها لم تمنعني من العودة، ألومها لأنها لم تصمد بعد العودة، ألومها لأنني اعتدتُ دوماً لومها ولأنها عوّدتني أن تتحمّل اللوم برضى وتضحية.

اليوم أكره الرياض كثيراً، أكره عودتي إليها بقدرِ ما كُنت وما زلتُ أكره طفولتي فيها، اليوم أكره كُل من تسبّب بفشلِ زواجي، ألوم أمّي، ألوم نفسي، ألوم الرياض وألوم قطعاً مُنتهى!

* * *

عندما يكون الخوف رفيق الطفولة، يكبر الخوف

مع الإنسان ليُصبح رفيق العُمر وإن لم يكُن صديقه!

خوفي من امّي، من صراخها وضربها وعقابها وعُنفها، جعلني اخشى أن احدّثها في أيّ شيء، ربّما لأنها كانت تملك أسباباً دائمة لتأويل ما يُقال لها، دائماً ما كانت تؤوّل ما يُقال، تفترض فيه سوء النيّة، تُفسّره وفقاً لنظرية المؤامرة، ولا يُستثنى من هذا أحد، حتى إن كان ابنها، الطفل الصغير!

خوفي من امّي، دفعني للصمت الاختياري معها، كُنت أمارس الصمت اختياراً كيلا أقع معها وأمامها في ما قد أدفع ثمنه ألماً وقسوة.

لذا كُنت لقمة سائغة للمُتنمّرين في المدرسة وللمتحرّشين في الشارع، وكأنّ هؤلاء الشاذين عن الإنسانية قادرون على أن يشمّوا رائحة الخوف كالحيوانات المتوحّشة والشرسة.

كُنت طفلاً صغير البنية، قصير القامة ونحيل الجسد، بثيابٍ بسيطة وقديمة، بصوتٍ خافت

وعينين لا تُطيلان النظر في الأعين الأخرى، ربـ
لأنّ أمّي كانت تصفعني في كُل مرّة أطيل فيها النظ
لها، كنت تسدّد صفعتها تلك وهي تصرخ: "وتحـ
عينك بعيني بعدا!"، فتنكسر نفسي وأخفض عيني
خشية من صفعة موجعة ومُهينة أُخرى.

هذا ما علمتني أمّي إيّاه! أن لا أطيل النظر فِي
أعين الآخرين، أن أطأطئ رأسي حينما أتحدث
مع أحد منهم، وأن أخفض صوتي حينما أتكل
لأعيش حياتي كإنسانٍ "شبه" موجود.

لطالما كُنت فريسة التنمّر في المدرسة، لـ
يكُن هُناك أفضل منّي في الخضوع! يجتمـ
حولي المتنمّرون، يمزقون كُتبي، يبصقون عليّ
يضربونني، ولا أحد يحميني منهم إن لم يكُن أخي
وليد موجوداً حينها.

كُل ما كُنت أستطيع فعله في طريق عودتنا مـ
المدرسة هو أن أرتّب هندامي المُهان، أمسح أنفي

الألم، وأدمعي بذراعي وأنا أدعو الله بداخلي أن لا [illegible] أمّي إلى آثار المعركة كيلا أدخل في دوّامة التحقير وملامتها على جُبني وضعفي وانعدام رجولتي!

أفكر اليوم، كيف كانت تُطالبني أمّي بأن أكون رجُلاً؟! كيف أصبح رجُلاً وأنا ما زلتُ طفلاً صغيراً؟ لمَ كانت تطلب المستحيل، الشيء الذي لا يقدر عليه إلّا الزمن، لمَ كانت تطلب منّي أن اكون مُعجزة، رجُلاً في جسد طفل صغير؟!

ليت أمي عاملتني كرجل، لربما كُنت المعجزة التي أرادت مني أن أكونها! لو عاملتني كرجل في طفولتي لربما تحقّق أضعف الإيمان، لكنها لم تتعامل معي إلا كنكرة، كهامش، كعبء ثقيل، والحق أنها ما زالت تتعامل معي بطريقة لا يُعامل بها الرجال! ما زالت تتعامل معي وكأنني غير قادر على أن اختار لنفسي شيئاً، وكأنّني لا شيء!

تمر ذكريات الشارع في ذهني أحياناً. فأهز راسي كي أطردها منه، لكم اتمنى لو مُزقت تلك الصفحة من حياتي، لكم أتمنى لو قدرت على أن أمحو تلك الأيام من تاريخي ومن وجودي، لا أريد أن أذكر كم من يد شاذ تحسّست جسدي بشهوة بهيمية، لا أريد أن أتذكر تلك الكلمات التي كانت تُقال ولا تلك القُبل التي كانت تلوّث رقبتي وشفتي أحياناً، لا أريد أن أتذكّر رائحة الأنفاس النتنة التي كانت تقترب من وجهي بشهوة ولا تلك الأعين المخيفة والمُتوحشة.

أحمد الله دائماً أنني لم أقع ضحيّة للاغتصاب برغم أنني مررت بكُل أنواع التحرّش وكُل أصناف المُتحرّشين، أحمد الله كثيراً أن الله انتشلني من ذلك الموت الحيّ، الذي لا أعرف كيف كُنت سأقدر على أن أنهض منه لو وقعت في حفرته.

...

أنا لم أتحدّث يوماً لأحدٍ بخصوص ما قد تعرّضت له من تحرّشات في طفولتي، كُنت أخشى أن يصل شيء منها إلى أمّي، كُنت أعرف أنها ستجعلني الجاني لا المجنيّ عليه، لم تكن لتُنقذني منهم، لم تكُن لتحميني ولا لتُساعدني، كانت ستشعرني بأنني أسوأ فيمن هذه الحياة، ولم أكن أحتاج لأن يُشعرني أحد بأنني أسوأ ممّا كُنت أشعر به فعلاً.

كم أمقت هذا الفصل من حياتي، كم أمقته كله، بكُل ما فيه، من تفاصيل وأشخاص ومواقف وأحداث.

أوقعني الخوف في الكثير من المواقف البشعة والقاسية، الخوف الذي رمتني أمي في متاهته بلا شفقة ولا تعاطف ولا أدنى رحمة.

تسامحت اليوم مع الخوف الذي لطالما رافقني، لكنني لم أقدر على أن أتسامح مع أمّي، ربّما لأنها

هي من اختارت لي هذه الرفقة!

* * *

يرحل الأشخاص وتبقى روائحهم عالقة!

حينما غادرت مُنتهى، اتفقت مع شركة نقل للأثاث على أن يفرغ العمّال كُل ما في خزائن الملابس الخاصّة بمُنتهى ويضعوها في صناديق كبيرة، جعلتهم يعبّئونها بملابسها وحاجياتها ونقلتها إلى حيث كانت في بيت أهلها.

لا أعرف ما الذي وصل إليها وإلى عائلتها من تلك البادرة، هل شعرت بالإهانة وبأنني أقطع كُل حبال عودتها إلى بيتنا، أم شعرت بالتقدير لطليقها الذي أرسل كُل متعلقاتها في بيته بصناديق أنيقة مُغلقة؟

لا أستطيع تخمين ما فكرت وشعرت به، لكنني

أُدرك اليوم أنني فعلت ذلك من أجلي، لا من أجلها، لم أرد معاونتها في نقل كُل ما لديها في بيتي إليها ولم أرد إهانتها كذلك، كُل ما أردته هو أن أنتهي منها في بيتي، أن لا يبقى لها فيه شيء يدفعني للتفكير بها، أردتُ أن أطهّر البيت من بقايا حبّها العالق في نفسي، أردت أن أمحو وجودها السابق فيه، أن أتخلص منه، أن أنساه، لكنني لم أقدر!

لم يبقَ لي في بيتي شيء وبقي لها فيه كُلّ الأشياء!

ما زلتُ أراها هناك، مضطجعة على الأريكة وهي تُدندن بجيتارها الأسود، ما زلتُ ألمح طيفها يقف في المطبخ أمام آلة صنع القهوة، ما زلتُ أشمّ رائحتها في ملابسي وعلى وسادتي، ما زلتُ أشعر بها تتقلب بجواري على السرير عندما يحين موعد النوم!

حاولتُ أن أُنهي وجودها في بيتي، لكنني لم أقدر على أن أحلّ مكانها في شيء! ما زلتُ أنام

على الجهة اليسرى من السرير تاركاً الجهة اليمنى منه فارغة! حاولت أن أنام في منتصف السرير مثلما من المفترض أن ينام رجُل أعزب في سرير كبير، لكنني لم اقدر على ذلك، شعرتُ بأنني ممُزق بين طرفين، عالق بينهما، ولم أرتح في نومي إلّا بعدما عُدت إلى الجهة التي كُنت أنام فيها، ليبقى طيفها بجواري كأثيرٍ ناعم ورقيق.

ما زلتُ أشاهد الأفلام الروائية التي كُنّا نُحبّها وأنا مضطجع على الأريكة الطويلة التي كُنا نتابع عليها كُل أفلامنا، كُنت أسند رأسي إلى مسند الأريكة وأمدّ قدمي بجوارها وكانت تفعل مثلي، تسند رأسها إلى المسند الآخر وتمدّ قدميها بجواري، أذكر أنني قُلت لها أول مرّة نمنا فيها بهذا الشكل:

قدماكِ أمام وجهي!

ـ وقدماكَ كذلك!

ـ مُتعادلان إذاً؟

صفقت كفها بكفي وقالت: تعادل!

اليوم أنام على الأريكة بدونِ أن تُقابلني قدماها، أفوز بالأريكة كلها، واحد/صفر! لكن الفوز بوحدة لا يُسعد أحداً، أحتاجُ لأن يُشاركني أحد هذه الأريكة، سواء بفوزٍ أو بخسارة! اليوم أنا مستعد لأن أخسر نصيبي في الأريكة مقابل المشاركة القديمة التي كُنت أعيشها معها، لم يكُن التعادل سيئاً على الإطلاق، كان تعادلاً ومُشاركة حميمة وسعيدة، مشاركة لم أُدرك وقتها كم كانت لذيذة!

دعتني نجلاء في إحدى ليالي هذا الشتاء إلى بيتها، أعدّت لي عَشاءً لذيذاً وجلسة دافئة، جلسنا أنا وهي وزوجها في حديقة بيتهما الصغيرة أمام موقدٍ صغيرٍ في ليلة شتوية مثالية، سألتها وهي تمدّ إليّ بكوبٍ من الزنجبيل: لم أرَ الصغار! أين هم؟

- ناموا بحفظ الله، فلتشكر الله كثيراً على أنهم ناموا قبل مجيئك، لو عرفوا أنك قادم لما كُنا نستمتع بهذه الأجواء الآن.

- ليتكِ لم تفعلي، كنا سنستمتع معهم أكثر.

قال زوجها وهو يضحك: يبدو أنك لا تعرفهم جيداً!

قالت نجلاء: خذهم إن كُنت تحتاج لأن تستمتع معهم! أحتاج لأن أتنفّس قليلاً.

- حرام عليكِ يا نجلاء، وهل هُناك أجمل من الأطفال؟

- إن كُنت تحبّهم إلى هذه الدرجة، فلمَ لم تساعد مُنتهى على العلاج؟

- أيّ علاج؟!

- مشاكلها في الإنجاب.

- ومن قال إنها كانت تُعاني من مشاكل في الإنجاب؟

- ولِمَ لم تُنجبا خلال ثماني سنوات من الزواج إن كانت لا تُعاني من مشاكل صحّية؟

- لأنني لم أرغب في أطفالٍ حينها.

- أتريد أن تقنعني بأنكما لم تُنجبا في ثماني سنوات بدون أن يكون لدى مُنتهى عوائق للحمل؟

- أنا لست مضطرّاً لإقناعك بذلك.

- لِمَ تُريد إقناعي إذاً بهذا وهي لم تعد زوجتك؟

- لأنها الحقيقة، لستُ مضطرّاً لأن أخبركِ شيئاً غير حقيقي عنها.

قال زوجها محمد وهو يصرّ بأسنانه بحرج: وما دخلكِ أنتِ في هذه المواضيع؟

قالت وهي تلوّح بيديها: ليس في الموضوع شيء يدعو إلى أن يغضب، ليس إلا مُجرّد فضول.

- ومن قال إنني غضبت؟

- راقب نفسك يا مشهور! انظر كيف توتّرت!

- أنا لم أتوتر، لكنني لا ولن أقبل أن يُقال عن

مُنتهى شيءٌ غير حقيقي، سواء أكان ذلك بحضورها ام في غيابها، هذه أقلّ حقوقها عليّ.

ربّت محمد ركبتي قائلاً محاولاً تغيير الموضوع: أصيل يا مشهور، بالمناسبة، كم ياخذ البنك الذي تعمل به نسبة على فوائد القروض الشخصية؟

حاولت أن أندمج مع محمد في موضوع القروض وفوائد البنوك، لكنني كُنت أشعر بذهني وخاطري يُحلق بعيداً، في تلك التي لم تعد زوجتي، تلك التي أثار موضوع نجلاء بخصوصها ضيقاً شديداً بداخلي!

لا أعرف ما الذي أثارني ليلتها، ما الذي أغضبني وما الذي جعلني أشعر بكُلّ ذلك الانزعاج وكُلّ ذلك الضيق، لكنني أعرف كم كُنت أشعر بأنني مَدين بالاعتذار لمُنتهى، شعرتُ بأنني آسف جداً لأن من حولنا يعتقدون أنها حرمتني أطفالاً كُنت

في الحقيقة من قد حرمها منهم.

كُنت حقاً آسفاً ومديناً لها...

* * *

لُعبة أطفال...

أشعر كأن حياتي كلعبة أطفالٍ خشبية، مكعّبات صغيرة خشبية وملونة، يختبر من خلالها الطفل التوازن والتآزر، يضع مكعّباً فوق المكعّب، وينهار البرج في لحظة اختلالٍ أو ثقلٍ زائد.

هكذا هي حياتي، مكعّبات من الخذلان والألم، انهارت فجأة فتناثرت تلك التجارب، تبعثرت مشاعري ولم يبقَ من ذلك البرج إلّا أساس ضعيف ومُحبط لعدمِ قدرته على حمل الثقل وعلى التوازن.

ما الذي أُريده الآن فعلاً؟ أتساءل دوماً هذا التساؤل!

... الذي أنتظر حدوثه لتنتهي بداخلي هذه المعمعة ولتصمت تلك الطاحونة في أعماقي إلى الأبد؟

أُفكر في الموت أحياناً، يدفعني اليأس قسراً لأن أُفكر فيه، ليس لديّ ما أخاف عليه في هذه الحياة...

لا زوجة سترمّل ولا أطفال ستُيتّمهم وفاتي، لكنّ سقوطي في ذلك الظلام جعلني أُدرك تماماً أن هذا آخر ما أُريده وآخر ما أنتظره.

أنا لا أُريد الموت، ليس الآن، ليس قريباً، أنا لا أُريد أن أنتهي في هذا الظلام، شيءٌ ما بداخلي يحتاج لأن يُثبت أحقيته في هذه الحياة، يحتاج ليُثبت أنّ بإمكانه أن يتجاوز كُلّ ما مضى وأن يعيش بلا وجع ولا صوتٍ قديم يصدح في رأسه ليلاً ونهاراً.

أحتاجُ لأن أعيش الحبّ من جديد، حتى وإن

لم يكُن الحُبّ مع مُنتهى، حتى وإن خبّأ لي القدر امرأة غيرها، المهمّ هو أن أعيش الحُبّ صافياً وأن أبدأ علاقة جديدة، بلا مُخلفات عالقة، ولا أحقادٍ قديمة.

أذكر تلك الجملة التي علقتها مُنتهى على مكتبها، وتركتها لي بعدما رحلت وكأنها أرادت أن تقول لي من خلالها شيئاً، كانت تُعلق جملة لمارك توين يقول فيها "الذكريات التي لا تموت، تُميت"!

لا أدري، أكانت تقصد بها مُنتهى ذكرياتها، أم كانت تقصد من خلالها ذكرياتي. لم أسألها يوماً ما الذي كانت تعنيه بتعليقها لتلك الجملة، الغريب أنني لم أنتبه يوماً لما قد تعنيه، لكنني وقفت أمامها كثيراً وطويلاً عندما أردتُ جمع أغراض مُنتهى لإرسالها إليها في بيت أهلها.

قرأت العبارة كثيراً، أخافتني تلك الجملة...

سحبتها من بين أوراقها وحاجياتها ولم أضعها في الصندوق، علقتها في مكانها القديم، على ذات المكتب... لأتأمّلها في كُلّ وقت تنهشني فيه الذكرى، وأفكر في الذكريات التي لا بدّ من أن أقدر على أن أطمرها في عتمة الذاكرة.

"الذكريات التي لا تموت، تُميت"، هذا صحيح، كما أن الذاكرة التي لا تُنسى، تموت حيّة...!

* * *

هُناك لحظة مُعيّنة، لحظة استثنائية يعود فيها بعض التائهين إلى أنفسهم، أولئك الذين ابتعدوا كثيراً عن ذواتهم وأنفسهم لأسبابٍ مُختلفة وأمور كثيرة.

أشياء كثيرة ومواقف وأحداث كثيرة قد تدفع الإنسان للوصول إلى تلك اللحظة بل قد تدفع

اللحظة لأن تميط لثامها وتظهر وجهها له من جديد.

كانت تلك هي اللحظة التي عُدت فيها إلى نفسي، اللحظة التي وجدت نفسي فيها بعد طول غياب.

لم تكُن لحظة سعيدة على الإطلاق، لكنها كانت حتماً لحظة مفصلية، لحظة ذات بُعد داخلي دقيق وخاصّ وحميم.

عُدت اليوم إلى ذاتي! ها أنا! ها هو وجهي الحقيقي... وها هي مُنتهى!

كُنت مدعوّاً في أحد المطاعم العريقة بأحد البرجين الشامخين في الرياض، كُنّا مجموعة من البنكيّين، نحتفل بترقية أحد زملائنا في ليلة شتويّة دافئة.

كُنت أهيم بعيداً عنهم، مع تلك الموسيقى الحميمة وصوت الفنّان الفرنسي المشحون شجناً،

وأنا أفكر ما الذي تعنيه تلك الكلمات؟ كيف يؤثر بي غناؤه وكيف يلمس قلبي بهذا الحنان بدون أن أفهم كلمة واحدة ممّا يقول؟ كُنت أنتظر أن تنتهي تلك الأغنية لأسأل النادل عن اسمها أو اسم الفنّان الذي يغنّيها.

كان المطعم مُكتظاً، بمجموعات من الفتيات فقط، ومجموعات من الشباب فقط، وأزواج من العشاق تكسو حُمرة الحُب والحرج والخوف من أن يراهم أحد أوجههم الشابة الشغوفة بالحياة.

كُنت أتأمّل الملامح حولي، ذلك عشاء عمل! وتلك جلسة أصدقاء، تحتفل أولئك الفتيات بشيءٍ من لحظات الفرح بالحياة، وهُناك وهُناك وهُناك، أزواج حُبّ وبعض من أزواج العبث.

كُنت أتفحّص ملامح الفتيات العابرات أمام مأدبتنا، أتفحّص ملامحهن، تبرّج بعضهن المبالغ فيه، نظراتهنّ الغاوية، نظرات بعضهنّ المُحتشمة،

بعين الثالثة، لأسقط فيها مُجدّداً، وأتوه في ذلك السواد الذي لم يكُن يفهم أسراره ولا دهاليزه غيري أحد، فجأة وجدت أمامي، تماماً وكُلياً ومُباشرة مُنتهى!

شعرتُ كأنّ شاحنة أُخرى قد صدمتني، شعرتُ بصفعة قويّة أعادتني إلى الحياة، إلى الواقع مرة أُخرى.

شهقت هي عندما التقت أعيننا، وقفت في مكانها وهي تضمّ يدها إلى منتصف صدرها بقوّة، اتّسعت عيناها وزاد سوادها عتمة.

سألتها الفتاة التي كانت تقف خلفها وهي تربّت ظهرها من الخلف: باسم الله عليكِ! وش فيكِ؟

هزّت رأسها وهي تُحدّق فيَّ بدون أن ترمش: ولا شيء! ولا شيء!

وضعت يدها على الطرحة التي كانت تُغطي شعرها والتي يظهر منها مُقدّمة شعرها الأسود

الناعم حتى مُنتصف رأسها، سحبت الطرحة لتغطي شعرها وكأنها تُريد أن تستتر منّي أنا فقط!

شعرتُ كأنها تُحرّم عليّ أنا فقط رؤيتها، وكأن شيئاً بداخلها يُريد أن يقول لي "إن كُنت مُحرّمة على الرجال مرّة، فأنا حرام عليك ألف مرّة ومرّة!".

عبرت بجواري، شعرتُ بقشعريرة تجتاح جسدي حينما عبرت، أردتُ أن ألتفت إلى اليمين حيثُ جلسن، لكنّ محمّد الذي كان بجواري استوقفني بسؤاله وهو يضحك، قال: يبدو أنها عشيقة من عشيقاتكِ السابقات!

أجبته وأنا أبتلع ريقي بصعوبة: من تقصد؟

- الفتاة التي مرّت.

- أيّ فتاة؟

- أتتذاكى علينا؟ الفتاة التي شهقت عند رؤيتك!

قُلت مازحاً: لا ليست عشيقة سابقة، لكن جميع من معها عشيقاتي!

ضحكوا وقد أصبحت محط النقاش، كُنت أستمع إلى تعليقاتهم الساخرة والقذرة وكومة من الجمر تستعر بداخلي، كُنت حانقاً للغاية، حانقاً من تعذّيهم على مُنتهى، حانقاً من نظراتهم الوقحة والصريحة حيثُ كانت تجلس، كُنت غاضباً من تعليقاتهم عليها ومن معها، شعرتُ كأنهم يعرّونها أمامي بتلك التعليقات، وكأنهم يوقفون زوجتي أمامي ويخلعون عنها ملابسها في حضرتي، قطعة قطعة!

لكنّني لم أكن قادراً على أن أقول شيئاً، لم أكن قادراً على أن أُدافع عن رجولتي، ولا عن حُبّي، ولا عن غيرتي ولا عن زوجتي التي لم تعد زوجتي!

كان عقلي يلهث، وقلبي يئنّ كذئب جريح، كيف لم تعد تلك المرأة زوجتي بعد؟ كيف لم يعد

يحقّ لي الدفاع عنها، كيف بات أقصى ما يحقّ لي فيها هو ما يحقّ لكُلّ رجُل يجلس في هذه القاعة معنا فيها؟ شعرتُ بالدوار، بالتقزز، بالضعف، بالألم، بالغضب، بالخوف وبالغيرة التي لم يعرف قلبي مثلها أبداً، أبداً.

استجمعتُ شجاعتي، والتفت إلى حيثُ يجلسون، شعرتُ برمحٍ مسموم يعبر صدري عندما رأيتها تجلس بلا غطاء على رأسها، كانت معظم الفتيات اللاتي في المطعم قد أزحن الغطاء عن رؤوسهن، لكنها ليست مثلهنّ بالنسبة لي، بالنسبة لي هي زوجتي، هي مُنتهى!

شعرتُ بالعرق يتصبّب من جسدي، بدأت أنفاسي تثقل وبدأت أفقد السيطرة على هدوئي، امسكت هاتفي وأرسلت إليها أوّل رسالة من بعد طلاقنا! كتبت رقمها وكأنني لم أمحُه من سجلّ هاتفي، وكأنني قد طلبتها ليلة أمس.

كتبت لها: "ضعي طرحتك على رأسك وغادري المطعم الآن".

رأيتها وهي ترفع هاتفها لتقرأ الرسالة، وتُعيده إلى الطاولة وتستكمل حديثها مع الفتاة الجالسة بجوارها وكأنها لم تقرأ منّي شيئاً بعد عامٍ من الانقطاع.

كتبت لها مرّة أخرى "قرأتِ رسالتي، غادري الآن بدونِ مشاكل".

كُنت أراقب أصابعها وهي تتحرّك على شاشة هاتفها وقلبي يخفق بقوة، لتجيئني رسالتها مُتحدّية "ومن أنت لتأمرني بالمغادرة؟".

توقفت قليلاً، لم أعرف بماذا أرد، كان سؤالها صعباً، قاسياً ولم اكن مُستعداً لكُلّ ذلك الموقف وكُلّ تلك المشاعر، ما الذي يسعني كتابته؟ بماذا سأجيب؟ أأقول لها أنا زوجك السابق؟ أم أقول لها أنا مشهور؟

كان من الواضحِ من ردّها عليّ، أنها لم تعد تكترث بي لا كزوجٍ سابق ولا كمشهور، فماذا كان بوسعي أن أُجيبها؟

وجدت نفسي أكتب لها:

- أرجوكِ غادري، أشعر بأنني سأموت.

- أتموت لأنني أتناول عشائي مع صديقاتي؟

- بل لأن من حولي ينهشون بكِ أمامي.

- وما دخلك أنت؟

كان سؤال مُنتهى حقيراً وسافلاً، كانت تُريد أن تضعني في مواجهة مع نفسي قبل أن تضعني في مواجهة معها، أنا أُدرك أنها كانت تفهم ما كُنت أشعر به، كانت تعرف ما الذي أُريد قوله بدون أن أقوله، لكنها كانت تُريد أن تجلدني بالإجابة، أن تجرحني بها، أن تذلني بها.

ما الذي كانت تُريد أن تكسر ظهري به؟ أكانت تتوقع أن أقول لها "لأنني أشعر بالغيرة"،

او "لأنني ما زلتُ أُحبّك"، او "لأنني ما زلتُ اعتبركِ زوجتي"؟ ما الذي كانت تُريد ان تدللني به؟ كان من الواضح أنها تعرف وتفهم كُلّ الإجابات التي كان من الممكن أن أُجيب بها عنها، فلماذا ارادت أن تؤلمني بها؟ أيّ قسوة هذه التي عرفتها من بعدي؟ لمَ أصبحت فجأة بهذه القسوة؟

وضعت هاتفي في جيبي واعتذرتُ من زملائي مُتعللاً بوالدتي وغادرت المطعم، كُنت اعرف انها تراقبني وأنا أغادر، كُنت أعرف أنّ من المستحيل ان يكون لقاؤنا عادياً بالنسبةِ لها، مهما حاولت ان تبرهن لي عكس ذلك.

كُنت أريد أن أغادر كُلّ ذلك المكان، كُلّ ذلك الوجع الحادّ والمفاجئ، لكنني وجدت نفسي اتّصل بها وأنا واقف في بهو الفندق، لم تُجبني في البداية، أرسلت لها رسالة "اجيبي قبل ان اصعد إليكِ مرّة أخرى".

أجابت في المرة الثالثة، قُلت لها بدونِ مُقدمات:

أنا في الأسفل، انزلي إليّ.

- نعم؟

- سمعت ما قلته، تعالي إلى البهو الآن.

- لا طبعاً.

كانت تُجيب باقتضاب، كان من الواضح أنها لم تكن تُريد أن تُميّز اللاتي كُن بمعيّتها مع من تتحدث وفيما تتحدث، شعرتُ بأن هذا في مصلحتي وأنها النقطة التي ستجعلني قادراً على أن أضغط عليها أكثر والتي ستدفعها للمجيء إليّ، قُلت "تعالي الآن، قبل أن أصعد إليكِ ويراني معكِ أحد".

أغلقت الهاتف بدونِ أن تُعلّق، كُنت أعرف أنها ستأتي، لكنني لم أكن أعرف ما الذي سأقوله لها، لم تكن لديّ خطة ولا أعرف لماذا طلبت منها أن تنزل إليّ.

لم تمهلني مُنتهى كثيراً لأُفكر في خطة أو في

ما سأقوله أو أفعله، وجدت باب المصعد ينفتح أمامي، ورأيتها تُقبل عليّ وهي تتلفت حولها بخوف وتوتر.

وقفت وقُلت لها: تعالي معي.

- إلى أين؟

- إلى السيارة.

- أي سيارة؟

- سيارتي.

- أمجنون أنت؟!

- سنتحدّث وأعيدك إلى هُنا مرّة أُخرى.

- قُل ما عندك هُنا وخلصني من هذه الليلة الكئيبة، ماذا تُريد يا مشهور؟

- تعالي إلى السيارة كيلا ينزل أحد من أصدقائي أو صديقاتك ويرانا معاً.

- ماذا لو داهمنا في السيارة أحد؟ أنا لم أعد زوجتك يا مشهور.

- ما زال في سيارتي صورة من عقد النكاح، ازلتِ زوجتي في تلك الورقة، لا تخافي وأسرعي بل أن ينزل أحد ممّن كُنّا معهم.

- لا، هذا جنون! لا لا.

- لا تخافي وأسرعي، وقوفنا هُنا وتوتّرك سيُثيران الريبة، هيا!

شعرتُ بالدقائق كدهر ونحن نقف أمام باب الفندق بانتظار أن يحضر العامل سيارتي إلى مدخل الفندق.

أدرتُ مفتاح السيارة بيدٍ ترتعش. لم تكن تلك المرّة الأولى التي أختلي فيها بفتاة لا يربطني بها رابط شرعي ولا قانوني بسيارتي، فعلتها كثيراً قبل زواجي بمُنتهى وفعلتها أيضاً ثلاث أو أربع مرات بعد انفصالنا، لكن مشاعري تلك المرة كانت مُختلفة تماماً، مشاعر مختلطة، جامحة، ولا قُدرة لي على تفسير شيئاً منها.

كُنت أسمع أنفاسها عالياً، كُنت أُدرك كم هي فَزِعة! التفتُ إليها، كُنت أريد أن أقول لها لا تخافي، لكنها التفتت أيضاً إليّ، التقت أعيننا، فشعرتُ بحرارة جارفة تجتاح جسدي وروحي معاً.

شعرتُ بسهامِ عينيها تُصيب قلبي، شعرتُ كأنني أسقط في عينيها، أسقط بها حتى آخري.

كان في عينيها أشياء كثيرة، خوف طاغٍ على معظم الأشياء، قليل من الشوق والكثير من العتب.

قالت: قُل ما تريد قوله بسرعة، لا بدّ مِن أن أعود الآن.

قُلت: بيتنا قريب، سنتحدّث في بيتنا.

- أنت مجنون فعلاً! أيّ بيت هذا الذي تتحدّث عنه؟ لم يعد لنا بيت يا مشهور.

- عندما تدخلينه بعد قليل ستعرفين عن أيّ بيت أتحدّث.

- مشهور! أعدني إلى حيثُ كُنّا.

- أتخافين منّي يا مُنتهى؟

- ولمَ لا أخاف منك؟

- أأتوقعين أن أسيء إليكِ وأنتِ ابنة لرجُل أكرمني بتزويجي ابنته وأخت رجِال وثقوا بي وكانوا رجالاً معي حتى بعد طلاقي من أختهم، أأتوقعين أن أسيء إليكِ وقد كُنتِ زوجتي لثماني سنوات؟

- أتوقع منك كُلّ وأيّ شيء يا مشهور، أُعدني إلى الفندق، أنا لست كاللاتي تحضرهن إلى بيتك كل ليلة.

- أنتِ أفضل من اللاتي يبتن في بيتي كل ليلة.

اتّسعت عيناها بقوة، بغضب، بصدمة وضعت يديها على عينيها كبنتٍ صغيرة، وانفجرت باكية.

لم أكن أعرف ماذا بوسعي قوله، كُنت أعرف أنّي جرحتها كثيراً، كُنت أعرف أنني كُنت قاسياً

في ما قلته لها.

امسكت بيدها التي تغطي بها وجهها وأزحتها عن وجهها قائلاً: كُنت لئيماً معكِ لأنكِ كُنتِ حقيرة معي!

سحبت يدها من يدي واستمرّت في بكائها بدون أن تُعلّق، كُنت أشعر بصوتها كسوطٍ يجلد داخلي، سحبت يدها عن وجهها من جديد وقُلت برجاء: كُنت أمزح، خلاص!

سحبت يدها من يدي مرة أُخرى، فقبضت عليها بقوة وصحت: خلاص يا بنت، فضحتينا!

دخلت في إحدى الحارات المظلمة، كُنت أعرف أن رؤيتها وهي تبكي بتلك الصوة كانت ستثير الريبة وتلفت الأنظار، توقف بكاؤها وبدأت تهدأ ويدها ما زالت في يدي، قاومت رغبتي في أن أضمّها إليّ، كُنت أصارع تلك الرغبة، لكنني لم أقدر على أن لا أقبل يدها، رفعتها إلى شفتي وقبّلت

اصابعها وقُلت: كُنت أمزح، والله! كُنت أمزح!

- لست مضطرّاً لتبرّر لي شيئاً ولست مضطرّة لأبرّر لك شيئاً، أنت لم تعد زوجي يا مشهور.

- صحيح، لو كُنتِ في عصمتي لما جلستِ في مطاعم مشبوهة حاسرة الرأس.

- ماذا تقصد؟

- أأصبحتِ تبحثين عن علاقات يا مُنتهى؟

- أنا لا أبحث عن علاقة يا مشهور، لأنني في علاقة.

شعرتُ كأنّ شلالاً من الماء البارد انهمر فوق رأسي، شعرتُ بالبرودة تجتاحني وبثقلٍ في أطرافي، أفلتّ يدها بهدوء، وقدتُ سيّارتي إلى الشارع العامّ بصمت، قالت: إلى أين أنت ذاهب؟

- سأُعيدكِ إلى الفندق.

- بسرعة، أرجوك.

- قُلت لك إننا عائدان إلى الفندق، لا تقلقي.

- أأغضبتك أني في علاقة مع أحد؟

- أنتِ لم تعودي زوجتي يا مُنتهى.

- حتى وإن كنت أمزح؟

التفتُّ إليه. كنت عاتباً وموجوعاً لكنني لم أنبس بحرف. قالت بعينين دامعتين برغم الكحل الملطخ بفعل الدمع: ألا يمزح غيرك في هذه الأمور أحد؟

- كم تحتاجين من الوقت لتعودي إلى بيتك؟

- أيّ بيت؟

- بيتك، بيتي، بيت.

- أتعرف أننا منفصلان من عام؟

- سنعقد عقداً جديداً، مهر جديد وعقد جديد وصفحة جديدة.

- هكذا؟! ببساطة؟

- نعم، هكذا!

- ومن قال لك إنني أريد أن أعود إليك؟

- ألا تُحبينني؟

ـ ألم تقع في الحب بعد انفصالنا؟

ـ كلا، لم أقع في الحُب.

ـ ألم تعرف امرأة غيري؟ ألم تعاشر غيري؟

ـ ما هذه الأسئلة الغبيّة؟ ما الذي ستستفيدينه منها؟

أمسكت بأسفل ذقني بيدها بقوّة وقالت وهي تنظر إلى عينيّ مُباشرة: أتحدّاك أن تقول إنّك لم تفعل!

أردتُ أن أنفي، أن أُنكر، أن أكذب لكنني وجدت نفسي أقول لها: لقد كُنّا منفصلين، لا يحقّ لكِ مُحاسبتي على شيء.

أفلتت ذقني بقوة وقالت وهي تشيح بوجهها نحو النافذة على يمينها: انتهى!

- ما الذي انتهى؟

- انتهى كُل شيء، محاولة إعادة العلاقة إلى حياة ميتة لمُجرد لحظات غيرة هي الحماقة بعينها.

- ومن قال إنها مجرد لحظات غيرة؟

- هل كنت ستطلب عودتي لو لم تُقابلني مصادفة هذه الليلة؟

- ربّما!

- لو كُنت تُحبّني لما قدرت على أن تكون مع غيري بهذه السرعة يا مشهور.

- كانت علاقتنا مُدمّرة يا مُنتهى، احتجت لأن أعيش حياة أُخرى.

- علاقتنا ستظلّ مُدمّرة، بغضّ النظر عن رفضك للإنجاب، بغضّ النظر عن مزاجيتك وبرودك وكل الأمور الأخرى، انتهى الأمر بالنسبة لي يا مشهور، تجاوزتك.

كُنا قد اقتربنا من المدخل الرئيسي للفندق، قُلت لها وأنا أوقف السيّارة أمام المدخل: أيدري والدك عن الصحبة الصالحة التي ترافقك وعن هيئتك المحترمة بين الرجال؟

- ليس هذا من شأنك.

- هيا انزلي لزبائنك، لا تنسي، كوني مع من يدفع أكثر!

- مريض!

نزلت من السيارة، واختفت بداخل الفندق بخطوات عجلى، كُنت أرقبها وهي تبتعد عنّي، وقلبي يرتجف "لَمَ اعترضتِ طريقي مرة أُخرى؟ لَمَ أعادك القدر في طريقي مُجدّداً؟".

* * *

مرضت!

أعيتني تلك الصدفة، كما لم يُعيِني الطلاق حينما وقع بيننا!

كُنت أظنّ أنني قادر على أن أُحبّ بعدها، كُنت أظنّ أنني على وشكِ أن أتجاوز خُرم الهمّ، وأنّ

غيمتها ستنقشع من سمائي قريباً، بعد عام طويل من الحنين المُنهك.

عندما رأيتها ذلك اليوم، أدركت أن قلبي لم يخفق في حضرة غيرها كما كان يخفق معها. حينما رأيتها أدركت كم أنا عليل بدونها، وكم سيُمزّقني وجودها مع غيري.

لم أشعر بالغيرة في حياتي كما شعرت تلك الليلة، جلدتني نظرات زملائي لها، أتعبت قلبي وأغضبته.

أفكر اليوم، ماذا لو تزوجَتْ مُنتهى؟ كيف سأعيش وأنا أُدرك أنها أصبحت حليلة لرجُل آخر؟

لرجُل غيري! رجُل قد يسعدها، وقد يُشبعها وقد يمنحها بعد مشيئة الله أطفالاً لطالما تمنّتهم!

أنا لا أُجيد الاعتذار بل لا أقدر عليه، لم أنشأ على ذلك، لم تعتذر منّي أمّي يوماً على شيء ولم يفعل والدي كذلك.

لا أفهم كيف يعتذر الناس ببساطة، كيف

يتنازلون، كيف يقدرون على أن يجعلوا أنفسهم الحلقة الأضعف؟

فكرتُ كثيراً في أن أعاود الاتصال بها، لكنني لم أكن أدري ما بوسعي قوله لها؟ ماذا أقول؟

لن أستطيع قول شيء إن لم أعتذر عن كُل شيء، وكُنت أُدرك تماماً أنني لن أقدر على أن أعتذر حتى وإن أردت.

لا أدري لما عشتُ لأيامٍ على أملِ أن تتّصل هي بي، تمسّكتُ بذلك الأملِ رغم صعوبة احتماله، لكنها لم تفعل، لم تتّصل، ولم تتنازل.

اتّصلتُ بعهود، فتاة كُنت قد تعرفت إليها قبل فترة من خلال عملي في البنك، كُنت أُدرك أنها تحاول إرضائي بأي طريقة، كُنت أشعر فعلياً بحبّها لي ورغم أنني كُنت أتجاهلها غالباً، ظلت تحاول خلق علاقة حقيقية بيننا.

جاءني صوتها سعيداً لاتّصالي، قلت لها إنني لن

أناديها بعهود وإن أسمها من الآن فصاعداً سيكون "مُنتهى"!

سألتني: ولماذا مُنتهى؟ ماذا يعني هذا الاسم؟

- المُنتهى هو نهاية الشيء، آخره، ألا تُريدين أن تكوني المنتهى؟

- ما دمت تُريدني أن أكون المنتهى، فحتماً سأكونه.

قُلت لها وأنا أقبّل الهاتف: أُحبكِ يا مُنتهى، اشتقتُ إليكِ يا حُبّي!

لحظتها، أيقنت بداخلي أنني بتُّ مريضاً فعلاً مثلما قالت لي مُنتهى في السيّارة، لكن هذا لم يمنعني من أن أشعر بشيء من الراحة والمُتعة.

* * *

مات أبي...

لم يكُن موته مفاجئاً برغم المفاجأة!

لم يكُن مريضاً ولا مُختلفاً قبل الموت، مات كما عاش، بالروتين ذاته والعادات عينها، مثلما هو متوقع ولكن فجأة!

نام قيلولته على فراشه المعتاد، في الوقت نفسه الذي ينام فيه في معظم أيام حياته لكنه لم يستيقظ من قيلولتهِ ظهراً هذه المرة.

لم يكُن وقع موته عليّ حزيناً بقدرِ ما كان مُبعثراً، شعرتُ بالواجبِ حيال هذا الموت أكثر بكثيرٍ ممّا شعرتُ بالحُزنِ حياله حالما وقع.

كُنت أشعر بأن هُناك واجبات كثيرة تجاه هذا الموت، إعداد والدي له، الصلاة عليه، استقبال مُعزّيه، حصر الإرث ودوامات ما بعد الفقد العائلية والاجتماعية.

كُنت مستاءً من هذه المشاعر، الفطرة التي كانت بداخلي كانت ترفض نوعية مشاعري حيال موت

أبي، كانت تُطالبني بأن أكون أكثر عاطفية تجاه هذا الموت، والحق أنني شعرتُ بالحزن حين وصلني خبر رحيله لكن مشاعر أُخرى مُختلفة طغت على مشاعر الفقد.

قطعاً حزنت على موتِ أبي! حزنت على شيخوخته وعلى ضعفِ حيلته، حزنتُ على الأيام التي لم أستمتع فيها به وعلى كل يوم لم يستمتع هو فيه بي وبإخوتي!

حزنتُ لأن علاقتنا كابن وأب لم تكُن مثالية ولا حتى عاطفية كما ينبغي أن تكون عليه علاقة الأبناء بآبائهم.

علاقتي بأبي باتت هادئة حينما كبرت وغدوت رجُلاً، لم يتوانَ أبي عن مساعدتي في أعوامه الأخيرة رغم أنه كان يدفعني وإخوتي طوال حياتنا إلى أن نعتمد على أنفسنا ونبني ذواتنا بعيداً عن أيّ مساعدة قد تُقدّم لنا منه أو بسببه، لكنه

رغم ذلك بات أكثر قربا لنا في السنوات الأخيرة ممّا كان عليه في طفولتنا وشبابنا، إلا أن شيئاً من غيابِ الماضي كان حاضراً بيننا وبينه، شيئاً من تلك العلاقة السلطوية ظلّ قائماً بيننا رغم كهولته وقلةِ حيلته في سنواته الأخيرة.

الشيء الوحيد الذي يُريحني حيال موت والدي هو أنه لم يتعذب قبل موته، لم يهدّه المرض بقدر ما أنهكه الزمن، لم يُصارع الألم قبل وفاته بل مات مُرتاحاً ونائماً على فراشه مثلما كان يتمنّى أو مثلما كُنت أتمنّى له!

أنا لا أقدر على أن أقول إنني أتمنى لو عاش والدي أكثر ممّا عاش، لا مشاعر لديّ حيال بقائه حيّاً أكثر ممّا بقي أو غيابه أقلّ ممّا غاب.

لكنني تمنيت لو أنني تكلمت معه قبل الرحيل مثلما تمنيت كثيراً أن أفعل.

لطالما انتظرت وتخيّلت اليوم الذي سأقدر فيه

على أن أفتح مع والدي حواراً حميماً وصريحاً قبل أن ينتشله الموت ويخطفه الغياب.

أردتُ أن أقول له إنه أبونا الذي نُحبّه رغم قسوتهِ علينا، أردتُ أن أقول إننا لطالما رأيناه عملاقاً حتى في آخرِ أيّامه معنا ورغم كُلّ ما فعله الزمن والعمر فيه.

أردتُ أن أقول له إننا نتفهّم كل الأمور التي دفعته لأن يكون صارماً مع ثمانيةٍ من الأبناء والبنين في زمنٍ كادحٍ كالذي عشنا فيه طفولتنا، وإن صرامته تلك هي التي جعلتنا من وما أصبحنا عليه اليوم.

ربما هي ما دفعنا لأن نكمل تعليمنا رغم أمّيته وأمّية أُمي، أردتُ أن أقول له إنني أدرك اليوم كم كان صعباً أن يدفع والدان أمّيان أبناءهما للعلم والتعلّم.

أردت أن أقول له شكراً على كل الأشياء القليلة والبسيطة التي أسعدني فيها، على كلّ اللحظات

الطيّبة التي كان معي فيها وإن كانت قليلة.

لكنه رحل قبل أن أقول له شيئاً من هذا، ربّما لم أكن لأجرؤ على أن أقول له شيئاً منها حتى لو عاش مئة سنة أُخرى، لكن هذا لن يمنع نفسي من أن تندم على تحفظي وتأخري وتأجيلي لهذا الحديث.

الآن مات أبي، ربما أصبح أقرب إليَّ الآن رغم بعده، ربما يستطيع الآن أن يسمعني بلا مُقاطعة ولا عتاب ولا تهميش، لكنني أحتاج لأن أرى تأثير حديثي في ملامحه، أحتاج لأن أرى انعكاس كلماتي في عينيه، أحتاج لأن يُجيبني ولأن يُعاتبني، لأن يُبرّر لي أو حتّى لأن يلومني على أفكاري ومشاعري، لكن شيئاً من هذا لن يحدث أبداً.

أبكمُ هو الموت، يبتلع كلمات من يقعون فيه إلى الأبد.

كُنت أتأمّل ملامح أبي في المغسلة قبل الصلاة عليه، مسحت بيدي على رأسه الحاسر بشعراته

البيضاء القليلة الصامدة، مررت بأصابعي على ملامحِ وجهه، تجاعيده العميقة المنحوتة بيد الزمن، طلبتُ من إخوتي أن يتركوني معه لدقائق، فأخلوا المكان لنا، لي وله!

قبلتُ جبينه ويده الباردة، قُلت له: يبه! تراني أحبّك يبه!

قفزت غصّة ذلك الطفل الصغير في حلقي، لم أقدر على أن لا أعود لأكونه أمام الموت، وأيّ موت! موت أبي.

وضعتُ رأسي على صدره الساكن، وقُلت والطفل يشهق بداخلي: سامحني يبه على كل شيء سوّيته وعلى كل شيء ما قدرت أسوّيه لك، سامحني لأني مسامحك!

رفعت رأسي للأب الذي لم يحزنّي موته حين وقوعه بقدر ما أقلقتني مسؤولية غيابه، وجدتُ أن شيئاً منّي سيذهب معه إلى الأبد، جزء منّي سيرحل

مع ذلك الجسد المهترئ والهزيل.

وجدت نفسي يتيماً فجأة رغم سنواتي الخمس والثلاثين، وجدت نفسي أصغر أمام الموت لأعود طفلاً يخشى فقدان أبيه، طفلاً لا يحتاج إلّا لأن يبقى والده حيّاً ليشعر بأنّ هناك سنداً يستند إليه وإن لم يكُن فعلاً ذلك السند!

مات أبي! أخبرته كم أحبّه لكنه لم يكن قادراً على أن يخبرني بأنّه بات يعرف.. مات أبي، قلت له إنني أحبّه، ورغم أنه لم يقل لي إنه يُحبّني يوماً، أعرف اليوم أنّه لطالما فعل!

* * *

كنت أظنّ أنها ستهرع إليّ فور أن تعرف برحيلِ أبي، هي التي كانت ترى أنّ وجه أبي هو الوجه الأكثر تقبّلاً لها ولطفاً ومصداقية معها من أيّ وجهٍ

من وجوه عائلتي المضطربة.

أُدرك جيداً أنَّ مُنتهى التي جاءت بخلفيةٍ عائلية بيضاء وتاريخٍ حميم وناعم، لم تقدر على أن تنسجم مع عتمة نشأة عائلتي، رواسب القسوة وصراع الوالدين الذي كُنّا تحت وطأته طوال حياتنا، لم يجعلنا ننشأ نشأةً سويّة كبقيّة الأطفال، أُدرك جيّداً أننا نشأنا مضطربين، مُختلفين عمّن سوانا، وإن كان بعضنا حلّ مشاكله مع الماضي بطريقةٍ ما فإن معظمنا لم يتمكن من أن يُزيل علامات العنف النفسي التي ما زالت تشوّه نفسه ودواخله، لكنني رُغم ذلك لم أكُن لأسمح لمُنتهى بأن تُشير ولو بإشارة إلى ذلك الاختلاف، لم أكن لأقبل منها أن تصِمَ أيّ واحد منّا بالاضطراب حتى لو كُنت مُدركاً لذلك.

والحق أنها لم تفعل، لم تتحدّث عن الأمر بشكل مُباشر رغم أنها عانت منه كثيراً، لكنني

نت أفهم تلميحاتها، كُنت أقرأ ما بين سطورِ
اشاتنا عن خلافاتها معهم، كم هي مصدومة
ن تشوّه ماضينا وانعكاسه على نظرتنا للآخرين
طريقة تعاطينا معه.

كانت ترفض ذلك التذبذب، تلك المحاولات
ي التحكم فيها والتدخل في علاقتنا، كانت ترفض
ان تُصبحَ شبيهة بأشخاص مشوّهين وأن تعيش معي
ما عشته وعاشوه مع أبي، رغم أنها كانت تقبل
أبي، وتختلق له بعض الأعذار أحياناً، لذا توقعتُ
أن تهرع إليّ فور أن يصلها خبر غيابه، لكنّها لم
تفعل، شاركته الغياب، غيّبه الموت وغيّبتها الحياة.

جاءني أبوها وإخوتها مُعزّين فيه، وأخبرتني
أمّي بأنّ أمّها وشقيقتها الكبرى قد حضرتا عزاء
النساء، لكنّها غابت عن المشهد تماماً، وكأنها
ترفض أن تكون على مسرحٍ مرتبط باسمي مهما
كان مضمون المسرحية أو الرواية الدرامية.

كُنت أراقب أمي في اليوم الثاني من العزاء، جلستُ حولها وإخوتي وأخواتي بعد رحيلِ جموع المعزين، كانت تتحدث عمّن جاء وعمّن غاب وكأنها تحكي حكاية أو عن مأدبة عيد! كُنت أفتّش في ملامحها عن أيّ لمحة حُزن، فقد، شوق أو حتى ندم، لكنني لم أرَ فيها شيئاً ممّا يُفترض أن تكون عليه ملامح الأرامل.

لم تكن أرملة سعيدة، لكنها لم تكن حزينة أبداً! كانت كعادتها، عصبيّة، بملامحَ قاسية، صوت عال ونبرة هجومية، لم يفعل بها الفقد شيئاً ممّا يفعله في العادة.

كان بودّي لو قدرت على أن أسألها: " أتشعر بأنها سترتاح برحيل أبي؟"، لكنني لم أجرؤ، لا خوفاً منها بل احتراماً لأبي وحياءً من الموت.

كُنت أتأمّلها وأنا أفكر، كيف سأشعر لو ماتت هي؟ أسيلوكني الندم كما لاكني بعد موتِ أبي؟

أساندم على كلّ الحوارات التي خضتها معها في نفسي ولم أجرؤ على أن أطرحها عليها أو أخوضها معها؟ كُنت أفكر، أسأقدر يوماً على أن أسألها عن بعضِ ما في نفسي؟ هل أتمكّن يوماً من أن أكون حقيقياً معها قبل الموت؟ وكيف سأمضي حياتي لو رحلت وعلاقتنا مُعلقة، بين ما كان وبين ما يُفترض أن يكون؟

قالت مُنتشلة إيّاي من أفكاري: تدري من جاء اليوم؟

- من؟

- أم مُنتهى وأختها، مدري وش اسمها! نسيت اسمها!

- ومن بعد؟

- بس! الأم وأختها.

- جزاهم الله خير ما قصّروا.

- جت الأم والبنت الكبيرة وهي ما جات،

قليلة الخاتمة.

- الله يستر عليها.

- ما تستحي، ما قالت هالناس أكلت وشربت معهم ثمان سنين ولا بيّن فيها المعروف والعشرة.

قُلت مُنفعلاً: إذا أنتِ زوجته لأكثر منِ خمسين سنة ما شفت لك دمعة عليه الله يرحمه، تنقدين على بنت الناس أنها ما جات عزاه ليش؟

قالت وهي تشيح بيديها بعصبية وبصوتٍ عال: وأبوك شفت معه يوم حلو عشان أبكي عليه الله يرحمه؟

- أنا ما قلت أبكي، أنا قلت لا تشرهين على بنت الناس وهي لا هي بنتك ولا هي زوجة ولدك.

وضع أخي الأكبر علي يده على كتفي وقال بصوتٍ مُنزعج: خلاص يا مشهور! قفّل على الموضوع، ما هو وقته هالكلام.

صمتّ واستمرّت أمي، قرّرتُ أن أنظر إليها بدونِ

أن أراها، أن أكون أمامها بدونِ أن أسمعها، قرّرت أن أكون معها وأنا أُحلق بعيداً عنها، قرّرتُ أن لا أكون حاضراً خلال حضوري، وأن أغيب خلال الحضور بدلاً من أن أحضر خلال الغياب كأبي الذي كُنت أشعر به حولنا، بلا صوتٍ ولا صدى.

لا أعرف لماذا لم تجئ منتهى، لا أعرف ما الذي ارادت أن توصله إليّ من خلال عدم وجودها في عزاء أبي، لكنني أعرف أنها قطعت أحد خطوط العودة عليّ بلامُبالاة سافرة.

غابت مُنتهى عنّي في وقتِ الخسارة هذه المرّة، وبقيت عهود تواسي يُتمي بُحبّ واهتمام ومُبالغة لم أعتدها من أحد.

لا أعرف لَم وجدت نفسي أفكّر بعد صفعة مُنتهى الأخيرة لي، لَم لا أتزوّج عهود؟

أنا لم أنجح مع من أحببتها، فلمَ لا أنجح مع من تُحبّني؟

لن أتبع قلبي، ولن أبقى عالقاً مع مُنتهى... هي من اختارت الغياب عنّي هذه المرّة.

* * *

لا أعرف ما الذي أردتُ قوله بزواجي بعهود! ما الذي أردت قوله لمُنتهى، لأهلي، للناس، ما الذي أردت قوله لنفسي!

تزوّجتُ بعد وفاة والدي بخمسةِ أشهر، زواجاً سريعاً صامتاً بلا احتفالٍ ولا صخب، احتراماً لموتِ أبي واحتراماً لزوجةٍ لم يُطلقها قلبي بعد.

كُنت أقف أمام إشارة المرور الحمرا، حينما سألتني عهود وأطراف فستان الزفاف الناصعة تشعّ تحت حلكة عباءتها: فيمَ تُفكر؟

- فيكِ!

- أما زلت تفكر فيَّ حتى بعدما أصبحت معك؟

ابتسمتُ لها وأنا أتأمّلها، قُلت في نفسي "أنتِ أيضاً! تُدركين أننا لا نفكر إلّا في من هو غائب عنا، في من حجبه عنّا الغياب، ماذا كُنتِ ستفعلين لو عرفتِ في من أفكر وأنا معكِ في ليلة زفافنا؟".

أخذت أتأمّل الأرقام الحمراء التي تتغيّر تنازلياً وببطء لا يُصدَّق، أيّ إشارة هذه التي تستغرق عمراً طويلاً لتُضيء خضراء أمامنا وكأنها تطلب منّي أن أقف طويلاً وأن أعيد التفكير وأتمهّل.

كانت الأرقام تتنازل مُقتربة من الصفر لتضيء خضراء وكأنها لحظة الحقيقة، اللحظة التي شعرتُ فيها بأنّني ورّطتُ نفسي مع هذه الفتاة وورّطتُ هذه الفتاة معي.

أخذتُ أفكر فيها، في العروس الخجولة بجواري، الفتاة التي تزوّجتني لأسبابٍ لم أقدر على أن أتفهّمها، كُنت مأخوذاً بالبكر التي تقع في حُبّ رجل استمرّ في زيجة لثماني سنوات كاملة.

لم يكُن ينقص عهود شيء لتبتدئ من بعدِ فاصلة، اللواتي مثلها يبدأن من سطرٍ جديد أو من بعدِ نقطة نهاية، لا يبتدئن من حيث توقفت امرأة أخرى، بل حيثُ انتهت نهائياً منه ومعه.

لم يكُن ينقص عهود شيء ليُحبّها رجُل، أو لأحبّها! ربّما لهذا تزوّجتها، لأنني أعتقد بأنني قادر على أن أحبّها ذات يوم، أو ربما لأنها قد تجعلني أُحبّها.

رُبّما لا يملك أحد ضمانات على خلق الحبّ لكنني لا أملك ما أخسره فلمَ لا أُجازف في ما لا أملكه؟

يُخيفني هذا الإحساس الذي انفجر بداخلي تلك الليلة، إدراك التورّط في أمرٍ جلل، لكنّني دائماً ما كُنت أسمع من أصدقائي أن مشاعر ليلة الزفاف دائماً ما تكون بهذه الحدّة وبهذا الاضطراب، وأن مشاعر الفرح فيها مهما بلغت فستطغى عليها

مشاعر التورّط والخوف من الالتزام.

لم أشعر بهذا في ليلة زواجي بمُنتهى، لم أشعر بهذا قطّ معها، على العكس تماماً، شعرتُ ليلة زواجنا وكأن سراحي قد أُطلق أخيراً وبأنني غدوتُ حُرّاً لأولِ مرة، كُنت أشعر بأنني أُحلق بعيداً معها، بعيداً عن كُلّ شيء وأيّ شيء.

ربما لم ينجح زواجنا لهذا السبب، ربما لأنني لم أخشَ خسارتها ولم أخَف الفشل معها ولم أتوقعه أبداً.

مشاعري عند زواجي بعهود مُختلفة للغاية، مشاعر الخوف والتردّد والقلق كادت تخنقني، ربما تكون تلك المشاعر هي المشاعر المفترضة في ليلة يرتبط بها رجُل وامرأة إلى الأبد، ربّما هي وجه من وجوه النضج ودليل على جدّية الرؤية تجاه العلاقة.

أمسكت عهود بيدي بأناملَ ترتجف وسألت

بقلق: ما الأمر؟

- جائع، أجائعة يا عهود؟

- لا تقل لي عهود، سمّني كما اعتدت أن تسمّيني، نادني مُنتهى.

* * *

صامتة هي وجوه إخوتي وأخواتي، مُتحفّظة هي، متكتمة ومُكبّلة... أتأمّل في ملامحهم في كُلّ مرّة نجتمع فيها وأبحث فيها عن سعادة لا أعيشها، وفرحٍ لا أعرفه ليقابلني صمت وجوههم الحادّ بدونِ أن أعرف أسعداء هم أم فعلت بهم الطفولة ما فعلت بحياتي وحاضري؟

وجوههم ليست بتعيسة، كما أننا لا نتحدّث عن الحزن أبداً، نمزح دائماً ونضحك ونسترجع الماضي بسخرية البارّين به رغم عقوقه بنا، لكن في

ملامحهم صمتٌ حالك، صمتٌ مُجبر.. صمتٌ مقهور رغم النضج ورغم الكبر.

أتذكر الليلة التي تكلمت فيها مع أختي نورة بخصوص خاطب تقدّم لخطبتها، كانت قد أخبرت أبي بموافقتها لكنني بعدما سألت عنه، وجدته رجُلاً مشوّه الأخلاق، رجُلاً لا يُشبه طهر أخلاقها وبياض سلوكها، رأيت أنّ من الواجب عليّ تجاهها أن أخبرها بكُلّ ما قد عرفته عنه، لأحميها منه أو لأرضي ضميري على أقلّ تقدير.

قُلت لها بعدما جلست معها وحدنا: نورة، أنا أعرف أنك ناضجة وذكيّة ومُدركة لمصلحتك، لكن من الواجب عليّ كأخ كبير لكِ أن أنصحكِ، هذا الرجل لا يُناسبكِ أبداً يا نورة.

- لن أسألك عمّا يعيبه يا مشهور، لا يهمّني ما يعيبه، لقد فكرت وأخبرت أبي بموافقتي بعد إذنك أنت وإخوتي.

- أنتِ لستِ كبيرة على الزواج حتى تقبلي بأيّ أحد يتقدّم لكِ، نصيبك لم يأتِ بعد، فلمَ العجلة؟

- أريد أن أرتاح من هذا البيت وممّن هم فيه.

- وكيف ضمنتِ أنّك سترتاحين من هذا البيت وأنّك سترتاحين مع هذا الرجل؟ نار أهلك أخفّ وطأة من جهنّم زوج فاسق يا نورة.

- ما الفسق الذي تتحدّث معي عنه يا مشهور؟ أتقصد انه سكّير؟ أن في حياته الكثير من النساء؟

- نعم، هو كذلك.

- أنت كذلك يا مشهور! جميعنا نعرف أنك كذلك.. أفاسق أنت؟ أجحيم هو العيش معك؟

شعرتُ كأن نورة لطمتني بتلك الجملة، لم أتخيّل أن تتجرأ واحدة من شقيقاتي لتقول لي ما قالته لي نورة تلك الليلة، كُنت أستطيع أن أصفعها كما صفعت مُنتهى يوماً، كُنت أقدر على أن أصرخ في وجهها، أوبّخها، أن أنفي، أن أُنكر.. لكنني لم

أقدر على أن أفعل شيئاً من هذا، تماسكتُ رغم صدمتي بما قالته لي وقُلت: نعم، هذا صحيح، لو لم يكُن العيش معي جحيماً، لما فشل زواجي ولما خسرتُ زوجتي، أتريدين أن تعيشي فشلاً يُشبه فشلي؟

- دعني أجرّب حظي في الزواج يا مشهور، ربما اختلف الأمر معي، ربما تغيّر!

- لن يختلف الأمر معك، ولن يتغيّر، إن كُنت تظنّين أنكِ تعانين في هذا البيت وأنتِ لم تخرجي منه، فكيف تظنين أنكِ ستعيشين فيه إذا خرجتِ منه وعُدت مطلقة إليه؟ أيّ حياة هي التي ستتشاركينها هُنا مع أمّي بعد طلاقكِ يا نورةَ؟

- وهل كُنت لأُفكر بأن أتزوّج أيّ أحد قد يتقدّم إليّ لولا ما تفعله معي أمّي!

- لذا أقول لكِ، لا تجازفي بالخروج من هذا البيت إلّا مع من تضمنين أن حياتكِ معه لن تدفعكِ

للعودة إلى هذا البيت، ستكون معاناتكِ أكبر بكثير ممّا تعيشينه الآن يا نورة.

- تعبتُ كثيراً، أحتاجُ لأن أخرج من هذا السجن!

كُنت أراقب دموع نورة الحارة، أراقب تلك الفتاة ذات السبعة والعشرين عاماً التي كانت تمسح دموعها بطرفِ كمّها كطفلةٍ صغيرة، أيّ يائسة هي تلك الفتاة؟ أيّ أمّ هذه التي جعلت منها هذه الفتاة الناقمة والمُحطمة؟

أيّ ماضٍ موجع هو الذي عاشته معها، وأيّ مستقبل ستعيشه لتهرب منها؟

أفكر وأنا اتأمّل نورة، أراضية هي أمّي بما عشناه معها في الماضي وبما نعيشه بعدها في حاضرنا؟

ليتني كُنت أستطيع أن أساعد نورة، ليتني قدرت على أن أنقذ أختي ممّا عشت معها فيه... لكنني لم أقدر، كُلّ ما أرادته هو أن تتخلص من هيمنة أمّي

عليها، ولم تتوانَ أمي عن دفعها إلى تلك الزيجة، ضغطت عليها بما يكفي كي تقبل بها بحجّة أن معظم من كُنّ في عمرها من قريباتنا قد تزوجن وأنجبن، الحقيقة أن نورة لم تكن بحاجة لمن يضغط عليها كي تقبل بذلك الرجل، كانت يائسة لدرجة أنها رأت فيه فرصتها الوحيدة بالنجاة، وبرغم الجحيم الذي تعيشه اليوم نورة معه لا تزال مُصرّة على أن جحيم غريب أهون على قلبها وإنسانيتها بكثيرٍ من جحيم أمّها!

* * *

أفكر دائماً ما الذي أحتاج إليه في هذه الحياة.

ما الذي أرغب في تحقيقهِ فيها؟ ما الذي سيُرضيني فيها؟ تتطوّر حاجات الإنسان وتتغيّر بفعل عوامل الحياة، لكنني أشعر أحياناً كأن حاجاتي في الحياة

هي ذاتها، منذ طفولتي حتى الآن، نفس الحاجات التي لم تُشبع وذات الرغبات التي لم تُحقق.

أُفكر دائماً، لِمَ شُوّهت طفولتي لهذه الدرجة؟ لست الطفل الوحيد الذي ضُرب ويُضرب في مجتمع يؤمن بالضرب وسيلةً وأداة للتربية، معظم أقراني إن لم يكُن جميعهم ضُربوا في طفولتهم وفي المراهقة، فلِمَ أنا المشوّه الوحيد بينهم؟

أُفكر أحياناً بأنّهم مشوّهون داخلياً مثلي تماماً، لكنّهم يُجيدون إخفاء تلك المعالم المشوّهة بدواخلهم، لكنّني أجد معظم من حولي يعيشون حياة تختلف عن الحياة التي أعيشها وباستقرارٍ لا يُشبه تخبّطي ونجاح لا يُشبه فشلي.

أظنُّ أحياناً أنهم نجوا من وطأة التعنيف لأنهم وجدوا شيئاً من الحُب خلال العنف.

دائماً ما كُنت أؤمن بأن العنف لا يُبرّر وبأن الحُبّ والعنف لا يلتقيان مهما كانت الأسباب،

لكنني أفكر اليوم في إمكانية أن يكون هُناك وجه آخر للعنف، وجه تائب ونادم، تماماً كوجهي الذي قابلته في مرآة السيارة يوم صفعت مُنتهى تلك الصفعة الأولى والأخيرة.

يومها لم تكن تلك اليد يدي ولم تكن تلك الروح روحي، كان الشيطان كماردٍ بداخلي، انفجر فجأة، تلبّسني ومدّ بيده عليها وصفعها تلك الصفعة/الشرخ، الشرخ الذي زاد الشرخ القديم بيننا اتساعاً وفجوة.

لا أعرف كيف كان أبي يُعيد الكرة؟ كيف كان يضرب أمّي مرّة تلو المرّة؟ لا أعرف كيف كانت أمّي تقوّي ذلك الجنون؟ كيف قدرت على أن ترى الخوف والرعب والضعف بأعيننا ورغم ذلك تمارس علينا العنف والقسوة مرّة أُخرى؟

الفزع والمقت والخيبة التي رأيتها في عينيْ مُنتهى تلك الليلة، لم تُكن شيئاً عادياً ولم تكن

شيئاً يحتمل العبور كأيّ عبور ويُغفر كمجرّد خطأ أو غلطة.

ما رأيته في عينيها كان حالكاً، حاداً، يُشبه النهايات وإن لم نفترق بعدها إلّا بأكثر من عام، لكن أظن أنني خسرتها فعلاً تلك الليلة.

لا أعرف كيف اعتراني ذلك الغضب، كيف ثارت أمّي بداخلي، كيف أصبحت أبي فجأة؟

كنا نتناقش في موضوع سفر، كُنت قد عقدت العزم على أن أسافر لأسبوعين مع أصدقائي لتواجهني برفض قاطع وحازم.

قُلت وأنا مضطجع على الأريكة: ولِمَ لا أسافر؟

– ولماذا ترفض أنت دائماً أن أسافر وحدي؟

– أخاف عليك.

– وممَّ تخاف؟ أنا لستُ بطفلة.

– لستِ طفلة لكنك امرأة!

– أنا سيدة، بالغة، عاقلة وحرّة، من حقي أن

أفعل ما تظنّ أنت أن من حقك فعله.

ـ قُلت بملل ونفاد صبر: ما عندي زوجة تسافر لحالها!

ـ وما عندي زوج يسافر لحاله!

ـ وأنتِ صاحية، عشان تحطين رأسك برأسي؟

قالت بانفعال وهي تلوّح بيديها: معك حق! فعلاً، المفروض ما أحط رأسي برأسك، أنا ما تربّيت تربيتك، أنا أشرف منها.

أذكر الموقف وكأنه قد سُجّل تسجيلاً بطيئاً في ذاكرتي، أذكر كيف أمسكت بجهاز التحكم عن بعد وكيف رميته بقوةٍ عليها، أذكر كيف قمت من مكاني ورفعتها عن الأريكة وصفعتها بكلّ ما أوتيت من غضب، أذكر كيف وقعت على الأرض وكيف كادت عيناها تقفزان من محجريهما من وقع الصدمة، وكيف قالت بعينينِ مُحتقنتين من شدّة الخيبة: أنت مجنون!

تركتها خلفي وهرعت نحو الباب بأنفاسِ قاتل، صفقت الباب بقوّة وأنا أعود إلى خارجِ الشقة، رحتُ أركض درجات السلم بدونِ أن انتظر المصعد، ركبت سيّارتي مسرعاً لأبتعد عن بيتنا ولأبتعد عنها.

كُنت خائفاً منّي عليّ وعليها، كُنت خائفاً من أن أكون خسرتها، كُنت خائفاً من أنّني أصبحتُ في نهايةِ الأمر كأبي، بل تماماً كأمّي!

تخيّلتُ أن مُنتهى قد أصبحتني! غدت مشهور الطفل الصغير، كُنت أعرف كم هي خائفة منّي الآن وكم كانت خائفة منّي حينما أقبلتُ عليها لأصفعها، كُنت أعرف كم كرهتني وكم باتت تمقتني.

لم أنم في شقتنا تلك الليلة، حاولتُ طوال الليل أن أُرسل إليها بأيّ شيء لكنني لم أعرف ما المفترض عليّ قوله وما قد يشفع لي عندها ذلك الوجه القبيح.

في عصرِ اليوم الثاني، ذهبت إلى بيتي، وجدتها قد حزمت أمتعتها، قبلتُ رأسها ويديها وبرّرت لها غضبي بمسّها لتربيتي، الغريب أنّها سامحتني تلك المرّة!

هي لم تغفر لي فعلاً، لكنها بقيت وقد كان ذلك تسامحاً منها.

اليوم أعرف أنني قد خسرتها تلك الليلة وأنّ وجه أمّي الذي ارتسم على ملامحي هو ما أنهى ما بيننا وما أرعبها، اليوم أعرف أنّ علاقتنا انتهت تلك الليلة وأنّ وجه أمّي هو من أفزعها ومن أنهى حكايتنا...

* * *

مُزعجٌ هو اجتماع العائلة!

ازور اهلي كل يوم جمعة من كل أسبوع، تجتمع

أخواتي وإخوتي وزوجاتهم، والصف الثالث من عائلتنا، الأحفاد والحفيدات.

تتوسّط أمّي وسط المجلس بوجهٍ مُنزعج، تصيح على طفلٍ هُناك وتصرخ على آخر، تشتم الأطفال بلسانٍ اعتاد أن يشتم بأقبحِ الألفاظ طوال الحياة، أتأمّلها وأنا أُفكّر، لمَ نتحلق حولها كُلّ أسبوع برغم الضيق الذي تُبديهِ خلال هذه الزيارة؟

تزعجها تصرّفات الأطفال وشقاوتهم، ويوتّرها وجود زوجات إخوتي المنعزلات في مجلس بعيد آخر، تظنّ طوال الوقت أنهن يتآمرن عليها وعلينا، وأنّ زياراتهنّ ليست إلّا نفاقاً.

أتأمّل ملامح أخواتي وإخوتي، في ملامحِ كلّ واحدٍ منهم ومنهنّ أسى قديم، وواجب لا بُدّ من أن يُقدَّم لهذه الأم التي كانت ولا تزال أمّنا بشكل ما، أو مثلما هو المفروض.

أجيء كُلّ أسبوع إلى بيتِ أمي، أدلف عليه

بنفس ثقيلة وأخرج منه بنفسٍ أثقل.. لكنني اعود كُل أسبوع إليه، لأن شيئاً ما بداخلي يدفعني لأن أعود.

كُنت أُجبر مُنتهى في السابق على أن تحضر اجتماعات العائلة، وأن تتجرّع مرارة يتشاركها أطراف وأعضاء عائلتنا، لم تكن مُنتهى تُحب ذلك الاجتماع لكنها كانت تأتي على مضض، حُبّاً بي ورغبة في أن تكون جزءاً من عائلة أنتمي إليها وإن كانت مشوّهة.

لكنني لم أطلب من عهود أن تحضر اجتماعات العائلة أبداً، بل طلبت منّي هي أن تقوم بذلك أكثر من مرّة فأبيت لا خجلاً منها ولا منهم، بل خوفاً من أن تطولها تلك المأساة بشكلٍ أو بآخر.

سألني شقيقي الأكبر علي بينما كُنا نحتسي قهوتنا العربيّة، أفضل ما يمكن أن يفعله الإنسان في بيت أمّي، قال: ما أخبار العروسة الجديدة؟

- بخير الحمد لله.

قال بسخرية: مظهرك لا يوحي أبداً بأنك عريس.

- سيّئ؟

- بل مهموم، قُلت لك سابقاً ما لك في الزواج يا مشهور، أتعود للقفص بعد الحرّية بقدميك؟

- قدّر الله وما شاء فعل.

ضحك علي ضحكته المجلجلة وقال: يبدو أنك متورّط جداً.

ابتسمت في وجهه وأنا أفكر، أأنا من تورّطت في الحياة أم الحياة هي التي تورّطت فيّ؟ برجُلٍ ممتلئ بالغضبِ من أكثر من ثلاثةِ عقودٍ ماضية؟ برجُلٍ يجرّ قدميه كُلّ أسبوع إلى بيتِ أمّه برّاً بها ويعقّها في داخلِ نفسه كلّ يوم بدونِ أن يجرؤ على أن يبوح لأحدٍ بذلك العقوق.

أفكّر دائماً أأحبّ أمّي؟ كيف لي أن أُحبّها وكيف

لي أن لا أحبّها؟

كيف أُحب جلّادتي، وجه الفزعِ الذي لطالما كُنت أسيره منذ طفولتي، وكيف لا أُحبّ أمّي التي أنجبتني وأرضعتني ومارست أمومتها بطريقةٍ ما معي، حتى وإن لم أشعر بها ولم أفهمها؟

كُنت أفكّر في هذه المشاعر التي لم أجد لها حلّاً، في الخوف الذي يعتريني من عقّي بها، ومن المقت الذي بداخلي لكلّ ما قد أبرّها فيه.

قمت لأقبّل رأسها مُغادراً، سألتني وهي تمسك بطرفِ شماغي الذي وقع حين انحنيتُ عليها:

والعروس وينها ما جات؟

- تعبانة شوي.

- تعبانة حامل يعني؟

- لا لا، أنفلونزا بسيطة.

- ولها ثلاثة شهور أنفلونزا؟

- لا يا بنت الحلال.

- اخاف مب عاجبينها مثل حرمتك الأولى ما تتشرّف تدخل بيتنا.

رفعت يدها أقبلها وقُلت: اذكري الله يمّه!

غادرتها وأنا أسمع صوتها خلفي يُندّد بتصرّفات العروسة التي لم تزرها إلّا مرّة خلال ثلاثة أشهر.

أخذتُ أفكر بالطريق، أنا لم أختر أمّي لتكون أمّي وهي لم تخترني لأكون ابنها، أكانت ستختارني لو كان الخيار بيدها، أكنت سأختارها لتكون أمّي؟

* * *

كُنت هُناك، عالقاً ما بين حياتين، مماتين، امرأتين، يُعذبني حُبّ إحداهن ويُعذبني ماضيٌ مع أمومة الأُخرى.

قادرة هي المرأة على أن تُحبّ بسهولة رجُلاً يحبّها، لكنّ الرجل مُختلف عنها في هذا التفصيل.

مرّت في حياتي نساء كثيرات، أحببّني معظمهنّ، لكني لم أقدر إلّا أن أُحبّ امرأة واحدة، امرأة لم تعد تربطني بها أيّ علاقة.

من الغريب أن تصل الحال في بعض قصص الحُب إلى تلك النهاية، كيف تنتهي علاقة حُبّ لم ينتهِ الحُبّ فيها بعد؟ من يجرّ هؤلاء العشاق إلى تلك النهاية؟ من يدفعهم لها فجأة؟

دائماً ما كُنت أفكر في هذا الأمر، في الشيطان الذي ما إن يدخل بين اثنين حتى يُجهز على ما بينهما مهما كان الحبّ الذي يربطهما عميقاً قوياً وفريداً.

أفكّر في تلك القدرة التي منحها له الله في أن يزرع بداخلنا الشكوك والكُره والوساوس، أفكر في ما كان يمكن أن تكون عليه حياتنا من دونِ شيطان...

كيف كان يمكن أن نكون؟ وكيف كانت ستبدو

حياتنا؟ أيّ تحدّيات هذه التي سنواجهها وأيّ ألم هذا الذي سنشعر به وأيّ علاقات التي قد نعيشها بلا شيطان؟

أشعر بأن الله قد خلق الشيطان لا ليختبر مدى إيماننا فقط، بل ليعلمنا من خلال الشرّ أن طريق الله دائماً هو الأسهل حتى وإن حاول الشيطان أن يعرقلنا.

خلق الله الشيطان، ليُخيّرنا بين طريق الله وبينه، لكننا برغم سهولة طريق الله، تسوقنا أقدامنا أحياناً إلى طريق الشيطان، فنتوه عن الله، ونتخبّط في دروب الشيطان حتى نخسر أنفسنا ومن نحبّ، ونخسر الله قبل أيّ شيء وكُلّ شيء.

وهذا ما حدث، خسرت نفسي وخسرت مُنتهى في معمعة الغضب التي لم أقدر على أن أنتشل نفسي من بين خيوطها، أحاول أن أطمئن نفسي بأنني لم أخسر الله تعالى، وبأن الله وحده القادر على أن

يتشلني من شبكة الحقد التي حِيكت خيوطها حولي، وبانني عاجلاً أو آجلاً سأقدر على أن أكون حرّاً بلا قيود ولا خيوط ولا عنكبوت الماضي.

كم أحتاجُ لأن أتصالح مع أمّي، أن أتصالح بداخلي معها، كم أحتاج لأن أغفر لها طفولتي، وشبابي وحاضري الذي لم يكُن ليكون بهذا الألم لولاها.

كم أحتاج لأن أسامحها، لأن أجد بداخلي عذراً لها، كم أحتاج لأن أكون ابناً كبقيّةِ الأبناء وأن أنظر إليها لأجد صورتها في عينيَّ كأمٍّ لا تشبه إلّا الأمّهات الحقيقيّات.

لكم ألوم أمّي بداخلي، ألومها على كلّ لحظات الشقاء التي عشتها في طفولتي والتي ما زلتُ أعيشها اليوم، ألومها على فشلي في زيجتي، على رعبي من فكرة أن أصبح أباً ذات يوم، على الحقد والغضب والتحامل الذي أعيشه بداخلي.

ألوم أمّي على كل اللحظات التي لم تعاملني فيها كطفلٍ بلا حولٍ ولا قوّة، ألومها على كلّ اللحظات التي عنّفتني فيها، وعلى كلّ لحظة عشت العنف فيها بتعنيفها لإخوتي.

ألومها على كلّ الليالي التي كُنت فيها أضع رأسي تحت وسادتي كيلا تسمع نشيج بكائي ألماً على الجروح التي كانت تشوّه أجساد إخوتي.

ألومها على أنها سعت طوال حياتها لأن تُكرّهنا في والدي، وأن تُحمّله بشكلٍ غير مباشر مغبّة عنفها علينا وقسوتها تجاهنا.

ألومها لأنّها لم تجعلنا نعيش معها كأبناء مع أمّهم، ولم تجعلنا نعش مع أبي كأب مع أبنائه.

لكنني برغم ذلك، أتوق لأن أسامحها كثيراً، لا من أجلها بل من أجلي، من أجل حاضري الذي يُشبه ماضيّ، ومستقبلي الذي لا أُريد أن أعيشه مثلهما.

أتوق لأن أغفر لأمّي لكنني لا أقدر، حجرٌ أسود ضخم وهائل يُثقل على قلبي، تصارع المغفرة في قلبي أنفاسها الثقيلة المتهالكة، تدعو الله أن ينتشل ذلك الحجر عنها، لكنّ الحجر لا يتحرّك ولا تُنقذ المغفرة، ولا أقدر على أن أغفر لأمّي.

* * *

كم تملأ الدنيا العصافير وكأنها دروس صغيرة!

لم أراقب في طفولتي العصافير وكيف تطير، لا أعرف لماذا لم تجذبني حينها رغم أن العصافير خير رفقة للأطفال وكأنها حلم بعيد، ربما كُنت مشغولاً حينذاك بالعصفور الصغير الخائف بداخلِ نفسي، لكنني اليوم أجلس طويلاً في الأماكن المفتوحة لأراقبها، لأتأمّل كيف تعيش حياتها بنشاط وحُب للحياة.

تستيقظ كل يوم وكأنه يومها الأول على هذه الأرض، تحياه بمُتعة، بشغف، بتوق لما قد يحدث في نهاراتها.

أبتسم لسلوك العصافير الحيّ، للمتعة التي يعيشها عصفور صغير ببساطة.

تبدو لي الحياة أجمل من خلال تلك الفراخ، تبدو لي أكثر يقظة من خلال صوت الحياة الصادر عنها، من خلال ذلك الشغب المهذب والنشاط المتدفق منها.

لكم بودي أن أطير كعصفور، أن أحلق بعيداً عن كل ما يربطني بالماضي وبحاضري، أن أبتعد إلى حيث يقودني جناحاي لأن أتحرّر من كلّ ما يربطني بهذا الواقع وتلك القيود التي لم أحبّها ولن أحبّها ولا أعرف لماذا ما زلت أقبل بأن تكبّل السعادة والحرية في قلبي.

أُعزّي نفسي أحياناً بأنَ هذا ديدن الأفراد في

مجتمعي وبأن ثقافة "القيد" تُقيّد معظم شرائحه، وبأنني لستُ إلّا وجهاً من وجوهٍ كثيرة، شخصاً من بين الشخوص، وفرداً من بين أفراده، وبأن كلّ فرد منه وفيه يحاول أن يخفي ألمه بطريقته الخاصّة، وبأن القيد يجمعنا برغم الاختلاف الذي يفرّق بيننا.

لكن الإنسان بطبعه يسعى لأن يكون حُرّاً، ألم يخلقنا الله أحراراً؟ أليس هذا المُبتغى؟

أن لا نعبد إلّا الله وأن نعيش الحياة أحراراً إلّا من عبوديته التي لا تُنقص من حرّيتنا شيئاً؟

فلِمَ نعيش أسرى قيود لم يفرضها الله علينا، بل اختارها المجتمع لنا؟

يحط عصفور صغير على الأرض بجواري، يغرّد بصوتٍ شقيّ، يتحرّك بخفة لا تُعقل، ويطير بعيداً بأملٍ جديد.

عصفور، عصفور... أمن الغريب أن يتمنّى

رجُلٌ أن يغدو عصفوراً؟

* * *

تصلبت ذاكرتي! توقف كُلّ ما فيها... وقفتُ في ذلك الزمن البعيد بلا حراك، تراجعت أحلامي، تقلصت، ولم أعد أحتاجُ لأن أصبح عصفوراً بعد الآن.

كُلّ ما أريده الآن هو أن أعود كما كُنت، أو كما يكون عليه معظم البشر، بصوتٍ، وذاكرة وحركة تُنبئ بشيء من الحياة...

كم هو ضعيفٌ هذا الإنسان، كم هو هشّ! كيف يقع في النسيانِ هكذا بلا حبال تربطه بالذكريات، وكيف يقع في السكون هكذا بلا صوتٍ حيّ أو بادرةِ حياة؟

لا أعرف ما الذي سأفعله لو قدرت على أن

أنهض من شبه الموت هذا، لكنني أعرف أنّ كُلَّ ما أحتاج إليه الآن هو أن أغادره، أن أستيقظ، أن أنهض منه وعنه.

اليوم أُريد كلّ الذكريات التي فرّت من ذاكرتي، أُريد أن أستجمع بقايا تاريخي، وفُتات وجعي، أُريد أن أواجه عتمة الذاكرة مُدجّجاً بالذكريات، وأن أنفض هذا النسيان عنّي، وأن أطرد هذا الموت منّي، وأن أعود إنساناً طبيعياً بذكرياتٍ وحياة.

لا أعرف كيف يقع الإنسان أسيراً لألم الذكرى لعقودٍ من حياته، وكيف يقع إنسان آخراً في وجعِ النسيان أحياناً؟

كيف تشقينا الذكريات حينما نحياها وكيف يؤلمنا النسيان عندما تُغادرنا الذكريات؟

لطالما تمنّيتُ نسياناً، لكنني لم أسعَ يوماً لنسيانٍ يُشبه هذا النسيان!

أُريد أن أرفع يدي مُستسلماً أمام الحياة، أُريد

ان ابكي، ان اصرخ، ان أُعلن أنني أضعف بكثيرٍ من ان اصارع الماضي، بكُلّ ما فيه من ذكريات، اريد أن أعترف بانّني أكثر هشاشةً من أن أعيش بلا ذاكرة في غياهب النسيان.

اشعر كأن الطريق قد انتهى بي فجأة، انقطع بي الطريق بلا مُقدّمات، وكأنني كُنت أسير في طريقٍ مُعبّد لأجد قدمَيّ فجأة تقفان على حافةِ هاويةٍ لا نهاية لها ولا مدى، لتضيع أوجاعي سُدى، بلا مكافأة ولا بداياتٍ جديدة ولا نهاياتٍ سعيدة.

أحاول أن أنظر إلى أعماق الهاوية، إلى تلك العتمة البعيدة، إلى حيث تنتهي الهاوية، ولا أجد لها نهاية ولا لهيبة الموت صدى.

تتساقط أفكاري منّي نحو الهاوية، ماذا لو كانت أمّي تركت أبي في طفولتنا؟ ماذا لو أنها تطلقت منه وهجرتنا لتتزوّج برجُل آخر ولتُنجب أطفالاً آخرين وتشوّه طفولة غيرنا؟ هل كانت طفولتنا

ستصبح أكثر وأصدق طفولة ممّا كانت عليه؟ أكنّا سنُحبّ أمي؟ أكنّا سنحتفظ لها في صناديق ذكرياتنا بملامح أكثر حناناً ومشاعر أكثر رقة؟ أكنّا سنبكي على فراقها ونحنّ إليها؟ أم كانت حياتنا ستصبح أفضل من دونها وبعيداً عنها؟

أرقب أحياناً تجاعيدها، تلك الخيوط الكثيرة والعميقة والمتداخلة، أغرق في صوتها، في تلك البحّة التي أضعفها الزمن، أتأمّل مياه الشيخوخة البيضاء في عينيها، في تلك النظرة المنكسرة والمتجبّرة في الوقت ذاته وأفكر، أتفكّر في ما أفكّر فيه أحياناً؟ أتصارع الماضي مثلما نصارعه؟ أتندم على شيء ممّا كان فيه؟ أتحلم بأن تعود إلى تلك المرأة التي تفصلنا عنها ثلاثة عقود، لتُصبح أمّاً مختلفة؟ أماً جديدة ترسم معنا ولنا مستقبلاً آخر، مستقبلاً لا يُشبه حاضرنا في شيء أبداً.

أشعر أخيراً بأنني أحتاجُ لأن أكون أباً، أحتاجُ

لطفولةٍ تُطبّب جراح طفولتي، احتاج إلى ان اتّكئ على طفلٍ سعيد، أحتاجُ لأن أكون اباً لأطفالٍ كُثر، أوزّع عليهم مأساتي فرحاً تلو الفرح، أمنحهم الطفولة التي لطالما حلمت بأن أحظى بها، الطفولة التي يستحقونها والتي كُنت أستحقها مثلما يستحقها كُلّ أطفال العالم.

ماذا فعلت بي أمّي؟ بل لماذا فعلت؟... أتراها مرتاحة لما فعلت؟

* * *

أتشفع لي طفولتي البائسة؟ وعند من ستشفع لي؟ أستشفع لي عند نفسي؟

أشعر أحياناً بأنني أتحمّل جزءاً كبيراً من مسؤولية ما أنا عليه الآن، أنا لم أُناضل لأغيّر من حياتي، لم أسعَ لنسيان ما حدث... بقيت أسير الذكرى

أُقارعها وتُقارعني بدونِ أن أحاول فعلاً الفوز عليها وبدونِ أن أهرب منها، كانت مُقارعة هوجاء بلا هدف.

أشعر دائماً وكأنني سأقضي ما بقي لي من عُمرٍ بلوم وعتب، وكأنّ هذا ما سيخفّف عنّي بؤسي. ورغم أن اللوم لا يزيد البؤس إلّا بؤساً، بقيت في دائرة التأنيب طويلاً، أو عاش التأنيب طويلاً في داخلي، يتخبّط في خلجات نفسي ولا يزيدني نحو الماضي إلّا حقداً ولوماً.

لكم أحتاج لأن أنسلخ من نفسي، لأن أكون رجُلاً آخر، بقدرٍ جديد، ومشاعر جديدة، وماضٍ لا يُشبه ما عشته ولا يلتقي معه في شيء، لكم أحتاجُ لأن أجرّب أن أكون عكس ما أنا عليه الآن، لأن أُجرّب قلباً صافياً وعقلاً هادئاً... وتجارب أخرى، تضيف لي ولا تُجهز عليّ.

أفكّر أحياناً في أصدقائي، أتأمّل طويلاً في

دائرة الأصدقاء... لطالما ظننتُ أنّ حولي الكثير من الأصدقاء، لكنّني لا أجد نفسي أبحث عن أيٍّ منهم في لحظات الضعف وأوقاتِ الحاجة.

أفكّر، أيعني هذا أنني لا أؤمن بأيّ علاقة في حياتي؟ لا علاقة حُبّ، لا علاقة صداقة؟

أيعني هذا أنّ علاقتي بأمّي قد شوّهت كلّ خرائط علاقاتي؟ فإن لم أثق بأمّي، فبمن سأثق؟ إن لم تكن أمّي أمينة عليّ، فمن سأأمنه عليّ؟

أنا لم أغيّر في حياتي شيئاً، وإن تغيّر حولي كُلّ شيء... بقيت ذلك الصغير لكنْ بجسدٍ بالغ، لم أسعَ فعلياً لأن أنتشل ذاتي من بين ذلك الحُطام، ظللت أئنّ تحت بقايا الذكريات، بلا نضال ولا حراك، لم أسعَ لأن أنقذ مستقبلي، فلمَ ألوم أمّي وحدها على كلّ ما يحدث وعلى كل ما حدث؟

اليوم أُدرك تماماً أن لا شيء سيتغيّر إن لم

أنفض غبار الذكرى عنّي... لن يتغيّر شيء أبداً.

* * *

مسكينةٌ هي عهود.. كم أشفق عليها وكم توجعني محاولاتها للوصول إليّ...

يؤلمني ذلك السعي الحثيث، يمزقني ذلك الأمل... لطالما ظننتُ أنني سأكون سعيداً مع امرأة تُحبّني، ظننتُ أنّ ذلك لم ينجح مع مُنتهى لأنني كُنت أُحبّها، وربما كان حُبّي لها نقطة ضعف في تلك الحكاية، إلا أنني لم أسعد مع عهود كذلك... ولم يشفع حبّها لي في خلق السعادة في قلبي.

لم أكن لأقدر على أن أُطيل الحكاية، كُنت أُدرك في داخلي أنّ شيئاً لن يتغيّر في علاقتنا، لن أقدر على أن أُحبّها يوماً ولن تقدر على أن تحتمل حياتها معي طوال العُمر، لذا كان عليّ أن أُنهي الحكاية،

بقلب جسور هذه المرّة.

كان يوم جُمعة، يوم إجازة. استيقظنا مُتأخرين، تناولنا إفطارنا معاً بعد صلاة الجمعة، كُنت أتأمّلها باحثاً فيها عن مُنتهى، عن شيء تُشبهها فيه، ولا أجد بعد طولِ تأمّل وبحثٍ وأمل! رغم أنني لطالما آمنت بأن النساء يتشابهن بشكل من الأشكال وبطريقة من الطرق، لم تلتقيا في شيء أبداً، أبداً.

قُلت لها بعد الإفطار: أُريد أن أحدّثكِ في أمر مهمّ يا عهود...

– إن شاء الله خير!

– خير إن شاء الله، وإن لم يكُن كُلّ خير ظاهره أو بدايته خير...

– لماذا تقول هذا؟... أخفتني...

– ما سأقوله سيزعجك، سيزعجكِ كثيراً يا عهود...

– أرجوك تكلم.

ـ أنتِ فتاة رائعة يا عهود، فتاة تفوق توقعاتي.

لا ينقصكِ في الدنيا شيء... ولكن يا عهود!

لمعت عيناها دمعاً قلقاً، خائفاً، لكنّني دُستُ

على قلبي، ووأدتُ تلك الحكاية!

* * *

لا أعرف كم من الأشياء التي قمت بها في حياتي من دونِ أن أعرف السبب الحقيقي لقيامي بها وإقدامي عليها!

كم من الأفعال التي أقدمت عليها بمُجرّدِ أن طرأت بذهني وبدونِ أن أُفكّر في جدواها أو في ما سيترتّب عليها وكأنني كفيفٌ يركل الكرة بشجاعة ولكن بدونِ هدف.

لا أعرف لماذا أرسلتُ إلى مُنتهى ذلك اليوم! لماذا جررتُ قدميّ الثقيلتين إلى عتبة قلبها بعد

زواجي بغيرها وطلاقي وبعد ما قطعت عليها كُلّ دروب العودة والحنين، ما الذي كُنت أنتظره وماذا كُنت أتوقع بعد كُلّ تلك الغيبة وبعد كلّ ما حدث؟ لماذا أعيش الحياة باعتباطية وعشوائيّة وسذاجة؟

لم أكن في حالة حُزن ولم أكن رفيق السعادة، كانت حياتي رتيبة برتابة مشاعري تجاه كلّ ما في هذه الحياة.

كُنت في الطريق إلى البيت، عائداً من العمل، وقفت أمام الإشارة الحمراء، وأرقامها تتنازل ببطء غريب وثقيل، أمسكت بهاتفي وكتبت لها بعد أشهرٍ من التفكير والتردّد "لا قدرةَ لي على أن أكمل حياتي مع غيرك يا مُنتهى!".

لم أكن قادراً على أن أكتب أكثر، ولا على أن أبرّر شيئاً، لكنني لم أقدر على أن أمنع نفسي من أن أقدم على محاولة يائسة أخيرة، محاولة فارغة، ساذجة وبلا أمل.

لتصحو ذاكرتي من جديد وتدبّ فيها الحياة.

اليوم أذكر كُلَّ شيء، كُلّ ما حدث... منذ أن بدأت أعي وجودي في هذا العالم حتى الرسالة التي لم تقطع عليّ أمل عودة مُنتهى فحسب، بل قطعت الحبل الذي كان يربطني بالحياة والنور.

اليوم أُميّز أصوات إخوتي وأخواتي، الذين واللاتي لم تنقطع زيارتهم لي منذ أن وقعت في هذا الظلام حتى الآن.

أُدرك اليوم أنّ زياراتهم قد قلّت عمّا كانت عليه في بداية سقوطي في النسيان، لكنهم لا يزالون يزورونني بين اليوم والآخر، ولا أخشى شيئاً كما أخشى أن يفقدوا الأمل في استيقاظي وأن تنقطع أصواتهم عنّي لأتوه مُجدّداً ما بين شكّي في ماهية حياتي وموتي، وأن تنتهي غيبوبتي على مشارف الموت بدلاً من أن تنتهي بالعودةِ إلى الحياة.

لكم أعادت هذه العُزلة ترتيب أوراق حياتي،

لكم غيّرني هذا المنفى؟ لكم فكّرت في ما و في من لم أُفكر فيه وفيهم يوماً؟

أفكّر اليوم، لمَ لم أسعَ بجدّيةٍ لأن أحلّ مشاكلي في الحياة وترسّبات ماضيَّ حينما كُنت قادراً فعلياً على أن أُغيّر شيئاً؟ لمَ لم أتعامل مع الحياة بجدّية أكبر حينما كان كُلّ ما فيَّ يقظاً وسليماً وحيّاً؟ لمَ انتظرتُ حتى وقعت أسيراً لشبه الموت هذا لأواجه نفسي وأصارحها؟ لمَ هربت في يقظتي من كُلّ ما كان يُجرّني إلى ذلك البيت وذلك الأسى بدونِ أن أُجهز على تلك الذكرى أو أن أتصالح معها؟

أُريد اليوم أن أستيقظ، أن ينتشلني الله من هذه العتمة، أن يبعث إليّ بنور اليقظة مُجدّداً، لأعيش حياةً لا تُشبه تلك التي عشتها قبل أن يُباغتني الظلام والنسيان.

أُريد أن أبدأ حياة حقيقية، لن أعيش مُجدّداً نصف حياة مع أحد، سأعيش الحياة مع من أُحبّ

ومثلما أحتاج وأحبّ، سأحرّر من تعيش معي من شبه الحياة التي تعيشها معي والتي لا تستحقها ولا تُرضيني.

اليوم، أحتاجُ لأن أشعر بُمنتهى، لأن توقظني بأمل العودة، وجودها وحدها هو القادر بعد الله على أن ينتزعني من أحضان هذا السواد المحيط بي، كُلّ ما أريده اليوم هو أن أستيقظ، أن أعود كما كُنت، وأنا كفيل بأن أُكمل في حياتي أنصاف الأشياء التي كُنت أعيشها وأُمارسها وأسعى إليها، لن أعيش بعد اليوم نصف شيء، سأعيش كُلّ شيء كاملاً وتامّاً ومثلما كان من الواجب عليّ أن أعيشه.

شعرتُ بخطواتٍ ثقيلةٍ تقترب، خطواتٌ مهمومة، تجرّ صاحبها أو صاحبتها الثقيلة بالهمّ نحوي، أمسكت يد دافئة ومُرتعشة بيدي واحتضنتها، وبرغم أنّ هذه اليد لم تحتضن يدي

ِما، عرفت بلا أدنى شك أنّ تلك اليد لم تكن
. مُنتهى، بل كانت يد أمّي... تُطبطب عليّ وأنا
عارع عتمة الذاكرة.

أثير عبد الله النشمي

٢٠١٦م

‘تمكّنت الروائية من كتابة أكثر من وجع، أكثر من امرأة’

جريدة العرب

حبّه لمنتهى ليس كقصص الحبّ، يبحث فيها عن كلّ ما افتقده في أمّه.

مشهور يحاول الهروب من سطوة ذكرياته الأليمة، لا يريد سوى أن يكون طفلاً كباقي الأطفال.

بين عنف الأب وقسوة الأمّ، تحفر الذاكرة شروخاً في نفس مشهور. فهل يستطيع التحرّر من ثقل ماضيه ووطأته؟ وهل يجد ما يبحث عنه؟

أثير عبد الله النشمي كاتبة وروائية سعودية. صدر لها في الرواية ‘أحببتك أكثر ممّا ينبغي’، ‘في ديسمبر تنتهي كل الأحلام’، ‘فلتغفري’، ‘ذات فقد’.

لوحة الغلاف للفنانة عالية الفارسي



ISBN 978-6-14425-957-3